

سعيد الأفغاني

الاسلام والمرأة



دار الفكر

الطبعة الثالثة

١٩٧٠ - ١٣٨٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى سائر
الأنبياء والمرسلين والصحابة والتابعين .

وبعد ، فقد كنت لاحظت^(١) أن الانسانية تعاني في هذه السنوات ،
موجة من التعصب للعنصرية ، وتحشد بعض الأمم الراقية حملة منظمة
يشارك فيها رجال العلم والأدب والادارة والجيش : لاقامة البراهين على أن
دمها ممتاز من سائر دماء البشر ، وأن شعبها بحكم الجبلّة وجد ليكون
أرقى الشعوب وحاكمها ، مسخرين في ذلك أمانة العلم وذمم العلماء .
ولست بصدد الدعوة إلى شيء من هذا ، لأنني أرى من الخير
للانسانية أن يبقى حرم العلم مصوناً من العبث ، سامياً على جميع
الاعتبارات ، يُخضع ولا يُخضع ، ولا خير في مجد زائف يروج له
الباطل ويدعمه البطر المتكبر . هذا إلى أننا قد أغنانا الله عن ذلك كله
بأمرين اثنين : أولهما الإسلام الذي قضى على فوارق الدماء وميزات
العناصر ، فجعل الناس متساوين أحراراً ، وثانيهما أنه أودع أمة العرب
من المزايا العريقة الخالدة ما جعلنا في غنى عن جميع المحاولات والادعاءات ،

مزايا يفنى الدهر ولا يقضي أهله منها عجباً .

فحسبي إذاً من خطة : أن أقرر واقعاً وأبين عن حق . فلا أتكلف اختلاق حسنة ولا محو سيئة ، مستنداً على ما ثبت لدي من حقائق . وسواء عليّ بعد : أنسبت إلى شعوية أم غلو في عروبة ، مادمت راعياً للعلم أمانته باخلاص ، بريئاً — على قدر طاقتي — من هذه الموجات المصيبة الطاغية .

وقد جعلت جل اعتمادي في هذا البحث ، على مصدرين اثنين هما القرآن الكريم والحديث الصحيح ، ضارباً صفحاً عن قصص وأخبار مستفيضة في كتب السير والأدب : هي على كل حال لم تدخل حرم التاريخ ، فهي عند بعض الناس أساطير وعند بعضهم مبالغ فيها . ومن حسن التوفيق أني وجدت ضالتي كلها في هذين المصدرين الخالدين . ولن يتطرق شك إلى أنهما يصوران أحداث عصرهما التصوير الصادق الصحيح ، أجمع على ذلك كل الباحثين على اختلاف أديانهم وأجناسهم ومنازعاتهم نحو الاسلام .



كان من يحاول الكتابة في موضوع المرأة الشرقية ، يعني برّد المقتريات (الاستشراقية والتبشيرية) التي يزجها كتاب الغرب عن عيين وشمال ، تعصباً وسوء نية : أولقاة اطلاعهم وقصور نظرهم ووقدانهم

٥
الأدوات الكافية التي تؤهل صاحبها لإصدار آراء صحيحة .
والموضوعات الإسلامية لا يُهجم عليها بقراءة بعض مصادر غريبة
مترجمة ، ولا على أثر رحلات خاطفة سريعة ، يعقبها إرسال الأحكام
هكذا إطلاقاً بغير حساب ، معمة شاملة كل عصر ومصر . وكثيراً
ما كان يكتفي أمثال هؤلاء الباحثين من دراسة المجتمعات الإسلامية ،
بنظرة عجل يلقونها على نظام (الحريم) التركي الذي كان قديماً
في (إستانبول) وكفى الله المؤمنين القتال !

هذه العناية من كتابنا برد الشبهات (المفرضة) هي الجواب
الطبيعي على حملات الجاهلين من جنود التعصب الدميم ، وقد كثر
هذا وذاك ، منا ومنهم ، حتى مُلّ ، وحتى عرف كل متعلم أن تلك
المفتريات — وإن أضفوا عليها ثوب البحث — لا تستند إلى واقع
صادق ولا علم صحيح ، فلم تعد حاجة بنا اليوم — وهذه درجة المتحاملين
من الجهل وسوء الطوية — إلى الاشتغال بالجدليات ، فأسقطناها من
بحثنا اكتفاء بما استفاد من العلم بين الناس من جهة ، وبما جرى عليه
العمل من جهة أخرى في كثير من أمم المتحاملين : من إقرار الطلاق
رسمياً لضرورته الشديدة ، ومن استغنائهم عن تعدد الزوجات الشرعي
بتعدد الخليلات على صورة لا رسمية ولا شرعية . والطلاق وتعدد

الزوجات هما الأمران اللذان بنى عليهما المتحاملون أكثر حملاتهم على نظرة الإسلام إلى المرأة . وإذا عرفت أن الطلاق والتعدد لا يشير بهما الشرع إلا عند الضرورة القصوى ، والحاجة الملحة ، وبشروط مقرر^(١) وأن الأوروبيين والأميركيين لا شروط تقيدهم في ذلك ، أيقنت أنهم في الماضي والحاضر ما زالوا بين تفريط وإفراط ، وأنهم لن يرجعوا إلى الخطة المثلى إلا بعد أزمان متطاولة تنضج فيها تجاربهم في هذين البابين .



خطة الدفاع التي اتخذها مؤلفونا في موضوع المرأة ، حسّنت لهم أن يحشدوا من أجداد المرأة العربية في جميع عصورها أكبر مقدار تيسر لهم الاطلاع عليه ، وعلى غزارة ما تجدد في بعض هذه المؤلفات من مواد ، لا تستطيع أن تخرج منها بفكرة شاملة صحيحة عن صنيع الإسلام بالمرأة : كيف أتقدها ؛ وإلى أين سما بها ؛ بل إنك لتجد في أكثرها كلاماً عاماً خطايا يعوزه الصحة والسند والشاهد .

(١) شروط تعدد الزوجات من الصعوبة بمكان حمل المعتزلة على القول بتحريمه لاستحالة تحقيق العدل بينهن في رأيهم على ما روى السيد أمير علي الهندي في كتابه « مركز المرأة في الإسلام » ص ٢١ .

أما الطلاق فلم يستحبه الإسلام إلا حين استحالة معيشة الزوجين معا وبعد إخفاق كل الجهود .

فرايت أن أحاول - على ضعفي وقلة بضاعتي - دراسة المرأة العربية بين جاهليتها وإسلامها، دراسة تستند إلى النصوص المجمع عليها والوقائع الصادقة المتواترة ، مقتصرأ على عصرها الأول وهو للمرأة العربية عصرها الذهبي بلا مرأ ، إذ فيه رفع الإسلام من النساء طبقة رفيعة مختارة ، جعل لها من السمو والتقديس والاحترام : منزلة دون الأنبياء وفوق الخلفاء ، وحسبك بهذا تشريفاً لمقامها إلى الأبد .

ليس من موضوعنا في هذا البحث إذن : الكلام على المرأة في أعصرها التالية ، حين بدأت (عملية الاختلاط والتفاعل) تتسع وتعمق ، وتستسر وتستعلن ، بين العرب والفرس : في الدم والعادات والتقاليد وأنماط العيش ؛ وحين أفسدت المادات الفارسية الرجل والمرأة معاً . وأتمنى أن يتاح لنا باحثون يقفون أنفسهم على إخراج بحوث متسلسلة تصور حال المرأة العربية عصرأ عصرأ حتى أيامنا هذه . ولا أجهل ما في ذلك من صعوبات وعقبات ؛ وما يحتاج الاضطلاع به من اطلاع كاف على التاريخ الاجتماعي لكل عصر والتنقيب على أحوال الأسر وطرز حياتها في كتب التاريخ والادب والمحاضرات ، ثم دراسة كتب الفقه المؤلفة في كل عصر على حدة - وهذا وحده يقتضي همة وإرادة وصبرأ طويلا - ... نعم ، أعلم حق العلم ما في ذلك كله من عناء

وما يتطلبه من سعة علم ونضج إدراك ، ودُرْبَة في الاستقراء والاستنتاج ، وفقه جيد بالمظان وقيمتها ، كما أنني أعلم أيضاً ما في ذلك لنا من خير كثير ، إذ تعرف بذور الفساد وبوادر الانحطاط ، كما نلمس دوافع التقدم وعوامل السمو . فنستطيع أن نزن خطواتنا ونسير على هدى وبصيرة في نهضتنا هذه الحديثة .

أما أنا فأعتقد أن عصر صدر الإسلام هو العصر الوحيد الذي سلم من تسرب العادات والتقاليد الأجنبية بالنسبة للمرأة ، وأنه هو وحده عصر المرأة العربية الخالصة ، كما كان فهم أهله للإسلام وروحه هو الفهم الصحيح .

ولا يفوتني هنا النص على أن التشريع النسائي والوصايا بالنساء كثر في القرآن الكريم والحديث الشريف كثرة تسترعي الانتباه ، صيانة للمرأة من جور العرف والمواضعات وتقلباتها في المستقبل ، وحفظاً لمقامها الاجتماعي عن الابتذال المحاط بالمجاملة والرياء على نحو ما نرى في المجتمعات الغربية ، فهناك احترام ظاهر لها ثم ابتذال غير رحيم . ولعلنا شاهدنا في أيامنا هذه عوامل الانحلال في كيان الاسر عند بعض الأمم : كيف أعقبتها انحلال هذه الأمم نفسها . والإسلام كان جاداً كل الجد حين لم يعبأ بهذا الرياء المصطنع وأراد للمرأة حماية

ومنة حقيقتين ، فجعل الصيانة هي المحور الذي تدور حوله أكثر الأحكام وذلك ماستراه في هذا الكتاب إن شاء الله .

ليس من خطتنا إذاً في هذه الدراسة ، أن نحكم على المرأة المسلمة بما استفاد في بعض الأمصار زمناً من الأزمان ، ولا أن نعتمد على الأفهام الأعجمية الغربية كل الغربية عن الإسلام وروحه وجوه ، ولا على الدراسات المرتجلة التي لم تكن بالحاق كل ظاهرة بأصلها وزمنها وأصحابها... إنما النهج القويم لطالب الفهم الصحيح لنظرة الاسلام إلى المرأة ، أن يتحرر في مصادر الإسلام الأساسية ومنابعه الرائقة وبيئاته الأصلية وعند أهله الأولين ، قبل أن تشوب المجتمع العربي الشوائب الأجنبية ، وتفسده العناصر الدخيلة وزيف الحضارات المتفسخة. وعلى من أراد شهود الماء على حقيقته الصافية أن يقصد ينبوعه ، فثمة طبيعته الخالصة وطعمه الصادق ولونه الرائق ؛ أما رؤيته في النهر بعيداً من منبعه فلا توحي للمشاهد بحكم صحيح ، لأنه يراه بعد أن انصبت عليه الروافد المختلفة واختلط بعياء السيول وحمل كل مارموا إليه من أقذاء.

كان هذا الكتاب في الأصل تمهيداً ومدخلاً لدراسة واسعة عن السيدة عائشة ، ولقد يسر الله إعادة كتابته بعد فقدان الأصل ، وهو أساس وتمهيد لكل دراسة عن المرأة العربية خاصة والمسلمة عامة ، جعلته بابين : الأول في (المرأة العربية في نشأة الإسلام) ، والثاني في الطبقة المختارة من النساء ، اللائي كنّ موضع احترام الناس كافة رعاتهم ورعيتهم ، وهي : أمهات المؤمنين . وعينت ببيان الشخصية الحقوقية للمرأة في المجتمع الإسلامي كما عينت ببقية نواحيها ، وأكثرت — عن عمد — من الشواهد والوقائع والنصوص لتكون الأحكام برهانية لاخطائية .

فان وفقت بعد هذا في محاولتي فالحمد لله ، وإن قصرت فشفيمي عند نفسي أني بذلت مخلصاً وسعي وهذا جهد المقل وأسأل الله المعونة والتأييد .

سعيد اللفطاني

دمشق

ربيع الأول ١٣٦٤ هـ

آذار ١٩٤٥ م

الباب الأول

المرأة العربية في نشأة الإسلام^(١)

يكاد العصر الذي نشأ فيه الإسلام يكون معلوماً بالضرورة لكل من ضرب في الثقافة بسهم ، مسلماً أو غير مسلم ، عربياً أو أجنبياً ، يدرسه طلاب مدارسنا في تاريخنا القومي ، ويلم به طلاب العلم في أقطار الأرض حين يقرؤون التاريخ العام ، لأن الإسلام أم الحوادث الكبرى التي غيرت وجه التاريخ : بعث أمة حكمت العالم المتمدن قروناً ، ووطد حضارة ، ونشر ثقافة ، وأحيا أمماً ، وقرر للإنسانية الراشدة نظامها الخالد .

لهذا أستغني الآن عن تمهيد ترسم فيه الخطوط البارزة للحياة في ذلك العصر ، إذ لا يجهل أحد عصر النبوة والراشدين ومعاوية ، مؤثراً أن ألم الإمامة قصيرة بالحال الجديدة التي قررها الإسلام للمرأة بعد أن نعرف شيئاً عن المرأة الجاهلية التي وجدها الإسلام أمامه حين بزغت دعوته .

(١) خلصت من هذا الباب محاضرة ألقيتها في الجمع العلمي العربي بدمشق في

١٦ من ذي القعدة سنة ١٣٦٠ هـ = ٥ كانون الأول سنة ١٩٤١ م .

الفصل الأول

المرأة في الجاهلية

درج الجاهليون في علاقتهم بالمرأة على أحوال يصعب معها إطلاق الحكم إطلاقاً عاماً ، فهم يحترمونها في نواحٍ ويمتهنونها في أخرى . والحق يقتضينا أن تكون نظرتنا عامة شاملة : فلا يصح أن نحكم على حال المرأة — كما فعل فريق من الباحثين — ببعض نساء الاشراف المحترمات كماوية امرأة حاتم وهند زوج أبي سفيان وخديجة بنت خويلد مثلاً ، كما لا يصح أن نشايع فريقاً آخر كان إلى الجور المحض حين اتخذ بعض نساء البداءة والعوام الخشنين القساة مثلاً لنساء الأئمة كلها .

المرأة العربية
والرومانية
والفارسية

ونحن مع تقريرنا أن المرأة العربية في القرنين السادس والسابع للمسيح أهنأ حالاً وأقرب إلى الاحترام في الجملة من المرأة في بقية الأمم حتى المتحضرة منها كالرومان ، مع هذا لانجد محيصاً عن ذكر الحيف الذي عاتته بعد شرح الرعاية لها .

فبينما كان للروماني وغيره قبل النصرانية الحق في أن يقتل

زوجته ؛ كما له الحق في قتل عبيده ^(١) وبينما نرى الأمم الأوربية

(١) انظر مثلاً : الاسلام والحضارة العربية ١ : ٨٠ ، ٩٤ - هذا ولا بأس هنا من إلمامة سريعة بنظرة أمم الحضارة يومئذ (الرومان والفرس وقبلهم اليونان) إلى المرأة : اعتبر الاثينيون (وهم أكثر الامم القديمة مدنية) المرأة من سقط المتاع ، فقد كانت تباع وتشترى في السوق لامنزلة لها ، وكان يحق للاثيني أن يتزوج بأي عدد شاء من النساء . أما اسبارطه فلا تسمح للرجل بأكثر من زوجة ، أما المرأة فلها أن تتزوج بأكثر من واحد وكانت جميع النساء يمارسن هذه العادة .

وفي بلاد الرومان كان التعدد - دون قيد ولا شرط - معمولاً به ، ومع تحريم الامبراطور جوستينيان التعدد بقي شائعاً ، وكانت الزوجة الاولى تتحكم بالبقية ، وليس لهن حقوق ، فكن ذليلات وأولادهن سقط المتاع في الهيئة الاجتماعية : لاميرات ولا حقوق . - انظر (مركز المرأة في الاسلام ص ٣٥ - ٣٨) للسيد أمير علي الهندي طبعة سنة ١٩١٢ .

أما المرأة الفارسية - وهي التي صار لها فيما بعد أكبر الأثر في انحطاط المرأة العربية - فقد كانت عبدة سجيئة لامنزلة لها ، تباع ببيع السلع ، وقد أباحت الانظمة الفارسية بيعها وشراءها . وشر من ذلك كله انها أباحت - على ما يقول السكاتب الروسي أغايف - الزواج بالامهات والاخوات والعمات والحالات وبنات الاخ وبنات الاخت ... ومتى حاضت المرأة ابعدوها عن المنازل وجعلوها في خيام صغيرة في ضواحي المدينة : لا يتخالطن احد ، حتى الخدم يلقون مقدم انوفهم وآذانهم وابيديهم بلغائف من القماش الغليظ عند تقديم الطعام لهن حذر أن يتنجسوا إذا مسوهن او مسوا الاشياء المحيطة بهن حتى الهواء .

والمرأة الفارسية تحت سلطة الرجل المطلقة ويحق له أن يحكم عليها بالموت دون رقيب أو مؤاخذ ، يتصرف بها تصرفه بسلعته ومتاع بيته . - انتهى بتصرف يسير عن (حقوق المرأة في الاسلام) تأليف أحمد أغايف وترجمة (سليم قبعين) سنة ١٩٠٥ .

حتى بعد النصرانية بقرون تدأب على ازدراء المرأة والانحطاط بها عن مستوى البشر ، واعتبارها مصدر الشرور والآثام وأنها مخلوق لا يستحق غير اللعنة . . . إلى أمور أخرى يعرف تفصيلها كل من ألم بالتاريخ العام . . . ، بينما كان ذلك كله رأينا العربي قد سما بفطرته في بعض الحالات ، فجدد المرأة في جاهليته ، وناجاها في سره وعلمه ، ونظر إليها فوضعها في منزلة تسامي منزلة الرجل في كثير من الأحيان .

والظاهر أن هذا لم يقع إلا بعد أن شاع في العرب في زمن متقدم امتهان المرأة وقتاً يسيراً ، حتى اضطرت حكمتهم أن تصحح خطيئتهم تلك فتقول : (المرأة من المرء ، وكل آدماء من آدم) وهذا أقدم مثل قالته العرب على مازعم الميداني في (مجمع الامثال) .

* * *

تولد الأنثى ، فيشعر والداها بخيبة ، فان تظاهرا بالفرح كان فرحاً واجماً يختلف عن المفراح التي تقام لولادة الذكور . وهذا شيء في طبيعة الناس كافة بأديهم وحاضرهم : يتمنى كل والدين على الأرض أن يكون مولودهما ذكراً ، فلا سبيل إلى أفراد العرب بالإنكار إلا فيما جرت عليه عادة بعض القبائل من وأد قبيح نحن عارضون له بعد قليل .

وتعني الأم بطفلتها عنايتها بطفلها ، ويغلب أن يكون نصيب الأنثى

إذا عاشت من عطف أبويها أكثر ، ورحمتها لها أشد لضعفها وخير
ما يمثل لنا هذه العاطفة قول اسحاق بن خلف :

ولم أقاس الردى في حنـدٍ سِ الظلم	لولا أُميمة لم أجزع من العدم
ذل اليتيمة يحفوها ذوو الرحم	وزادني رغباً في العيش معرفتي
فيهتك الستـر من لحم على وضم	أحاذر الفقـر يوماً أن يـلم بها
والموت أكرم نزال على الحرم	تهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً
و كنت أبقي عليها من أذى الكلام	أخشى فظاظة عم أو جفاء أخ
	وقول حطان بن المعلّى :

رُدِّدُنْ على بعض إلى بعض	لولا بُنيَّات كزُغِب القطا
في الأرض ذات الطول والعرض	لكان لي مضطرب واسع
أكبادنا تمشي على الأرض	وإنما أولادنا بيننا
لامتنعت عيني من الغمض	لو هبت الريح على بعضهم

حتى إذا بلغت مبلغ النساء كان لها محض الإرادة في اختيار
الزوج إلا فيما ندر ، فإن أنسلت تمت لها المكانة المرموقة في النساء
والعربي شديد الاحترام لأمه ، كثير الحذب عليها وعلى صيانتها ،
ويطيب له أن يتمدح إلى النساء ببطولته وأمجاده ، فهو كلما استبسل
في قتال أو سابق إلى مكرمة فجاشت نفسه بشعر ، بدأ بالمرأة فأشاد

بها ثم احتكم إليها فذكر مفاخره وأفعاله . وشواهد ذلك كثيرة
مستفيضة ، لقد كان فرسانهم ينزلون إلى حومة الوغى وألسنتهم رطبة
بذكر صواحبه أو أخواتهم أو أمهاتهم ، يرتجزون متحمسين طالبين
إلى هؤلاء النسوة أن يشهدن شجاعتهم واقتحامهم الغمرات ، في سبيل
مجدهم ومفاخرهم ، وما أكثر ما تجد في الشعر الجاهلي من مثل
قول عنترة :

هلا سألت الخيل يا بنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمي
يخبرك من شهد الواقعة أنني أغشى الوغى وأعف عند المغم
وقول بكير أحد بني الحارث بن عباد ، يمدح الأبطال بني شيبان
في يوم ذي قار : اليوم الذي وقف فيه جبروت الفرس وطفيانهم
يتحدى شهامة العرب ووفاءهم ، فأدال الله للخلق الكريم من الظلم
الناشم ونصر الفضائل العربية على الاستبداد الفارسي ، واعتبط فيه
كل عربي في الحواضر والبادي حتى سواحل اليمن ، معتزاً : أن
أدال الله للعرب على المعجم :

إن كنت ساقية المدامة أهلها فاسقي على كرم بني همام
ضربوا بني الأحرار يوم لقوهم بالشرقي على مقيل الهام^(١)

(١) تاريخ الطبري ١ : ٦١٢ (مطبعة الاستقامة - مصر سنة ١٩٣٩ م) وبنو

الأحرار : هم الفرس .

وقول الآخر في يوم ذي قار أيضاً :

إن كنت ساقية يوماً على كرم فاسقي فوارس من ذهل بن شيبانا
واسقي فوارس حاموا عن درياهم واعلي مفارقهم مسكاً ورِيحانا
وحتى لما جاء الإسلام وانبث جيوش العرب تكافح الظلم في
سورية والعراق ، صرت تسمع تمدح الفرسان بضروب شجاعتهم
للنساء ، استمراراً لعاداتهم القومية قبل الإسلام ، ففي حرب القادسية
ترى أمثال قول القائل :

حييت عنا عكرم ابنة خالد وما خير زاد بالقليل المصدّر
وحيتك عنا عصبة نخعية حسان الوجوه آمنوا بمحمد
أقاموا الكسرى يضربون جنوده بكل رقيق الشفرتين مهند^(١)
وفي حرب اليرموك بالشام ، لم يكن الأبطال الفرسان لينسوا
المرأة في ارتجازهم متحمسين ، فقال القمعاق بن عمرو حين كـ
على الروم :

يا ليتني ألقاك في الطراد يوم اعترام الجحفل الوراد^(٢)

(١) الطبري ٣ : ٨٣ وهذا وقد كان مع الجيوش المجاهدة نساؤهم فكان مع
قبيلة بجيلة ألف امرأة ومع قبيلة النخع سبع مائة امرأة على ما ذكر الطبري . لقد كان
نصيب المرأة من النصر يومذاك عظيماً جداً

(٢) الطبري ٢ : ٥٩٤

وارتجز عكرمة بن أبي جهل وقد حمي حميه :
 قد علمت بهكنة الجواري أني على مكرمة أحامي ... الخ^(١)
 لقد كان الفارس العربي يعد إعجاب المرأة به خير مكافأة على
 بطولته واقتحامه الموت .

واذكر إن شئت قول حاتم المشهور لزوجته ماوية يتمدح بشماله
 ويذكرها في صدر كثير من أبياته :
 أماوي إن المال غاد ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكر
 أماوي إني لا أقول لسائل إذا جاء يوماً : حل في مالنا نزر
 أماوي ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت نفسي وضاق بها الصدر
 إلى آخر الأبيات التي يذكر ماوية في صدر كل منها .

وإن شيوع الغزل في كل قصيدة جاهلية مهما كان موضوعها
 والباعث على قولها ، خليق أن نقف أمامه وقفة طويلة متأملين
 ملاحظين ، فما كان هذا ليكون لولا أن المرأة تشغل في المجتمع العربي
 منزلة هامة يتجمع حولها كثير من الشؤون ، وهو في الوقت نفسه
 دليل على ما تحتل من عقل العربي وقلبه .

والعرف العربي لا يجوز تعريض النساء للخواف والتهديد ،
 ويفرض حمايتهن وفداءهن بالروح ، ويحتقر كل من تهاون بصيانتهم

(١) الجزء نفسه ص ٥٩٥ والهكنة : الجارية الغضة المنعمة .

أو تردد في الموت دونهن . أما من قتل امرأة أو حمل عليها أو تمدح بقلبه عليها فيكاد لا يعرفه المجتمع العربي البتة ، بل المادة ألا يُقابَلن بالمثل إذا بدأن بضرب أو شتم ، والمثل المشهور « لو غير ذات سوار لطمتي » ^(١) نص قاطع في هذا الشأن .

صفات المرأة
الجاهلية جملة

تميز المرأة الجاهلية في الجملة بخلال ثلاث : العفة ، والفصاحة ، وحسن التريفة لبنيها . وإن الرجولة الطاخة في بلاد العرب مدينة بالشيء الكثير للمرأة إن لم تكن مدينة لها وحدها بكل صفاتها من مروءة وشجاعة وكرم ونجدة . وأصبح اختيار الأمهات أول ما يفكر فيه الجاهلي إذا ابتغى النجابة لأبنائه ، حتى صح أن يكون رأس ما يمن به الرجل على أبنائه إذا كبروا هو حسن اختياره لأهمهم :

وأول إحساني إليكم تخيري لماجدة الأعراق بادٍ عفافها
هذا ما رأيت أن قبائل العرب كافة تكاد تجمع عليه في نظرتها
إلى المرأة ، وأصبح نتيجة محتومة لما تقدم أن ينبغ في النساء أعلام
كثيرات مشهورات ، فكان منهن ذوات الرأي والنفوذ ، كما كان

(١) قاله حاتم الطائي : وذلك أنه مر ببلاد عنزة في بعض الأشهر الحرم ، ففاداه أسير لهم « يا أبا سفانة أكلني الإسار والقمل » فقال « وبحك أسأت إذ نوهت باسمي في غير بلاد قومي » فسأوم القوم به ثم قال : « أطلقوه واجملوا يدي في القد مكانه . » ففعلوا ، فجاءته امرأة يبيعير ليفصده فقام فنجره ، فلطمت وجهه فقال : « لو غير ذات سوار لطمتي . » يعني أنه لا يقتص من النساء

منهن الشواعر والكواهن والزواجر والمرييات . وأصبح نتيجة محتومة أيضاً أن تكون مكانة المرأة واحترامها والذود عنها وعن شرفها سبباً مباشراً وحيداً في إنشاء حروب طاحنة : فحرب ذي قار نشبت بسبب صيانة النعمان بناته عن تزويجهن من الفرس ، وحرب البسوس التي دامت أربعين سنة التهمت الأخضر واليابس وكاد الفريقان فيها يفنيان نشبت حفظاً لجوار امرأة ، وحرب الفجار الثاني في عكاظ كانت أيضاً انتصاراً لكرامة امرأة (١) ...

كانت المرأة الجاهلية تعاني — عدا شؤون بيتها من رعي وحلب وطبخ وتربية أطفال ومساعدة الزوج في مهنته — بعض الصناعات كالنزل والتجارة والكهانة والزجر واللهو أحياناً ، أما في الحروب فكان إلهن التمريض والعناية بالجرحى وسقي الماء وتحميس المحاربين .



(١) انظر كتابنا (أسواق العرب في الجاهلية والإسلام) ص ٣١٢ و ص ٣٠١

(طبعة ثانية : مطبعة دار الفكر سنة ١٩٦٠)

الفصل الثاني

مظالم الجاهلية للمرأة

نساؤهم بالآثى

فلننظر الآن في بعض مالحقها من شدة وحيف عند بعض قبائل

العرب :

كثير من أهل الجاهلية تطيّر من المرأة فامتنها وعدّها أداة شرّ،
وكان بلاءه الأكبر أن تولد له أنثى . وهؤلاء فريق غلوا في كرههم
الآثى حتى كان ما قصه الله علينا من أمرهم من شهوتهم البنين
وكرههم البنات :

« وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ »^(١)
ويجعلون للملائكة بنات الله :

« وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا، أَشْهَدُوا
خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ »^(٢).

وقال تعالى واصفاً حالهم معرضاً بهذا المثل الذي جعلوه لله:
وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ
مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ^(٣)

(١) سورة النحل الآية ٥٧ (٢) سورة الزخرف ٤٣ الآية ١٩

(٣) سورة الزخرف الآية ١٧

وقال في موضع آخر :

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ .^(١)

الوَاد

هذا الغلو في كره الإناث أدى إلى العادة المشؤومة وهي وأد البنات ، فكانت بعض قبائل العرب كريمة وكندة وتيم^(٢) تشدبناتها خوف أن يجرهن الفقر إلى العار والفضيحة ، بل إن بعض العلماء ذهب إلى أن الوأد كان في عامة قبائل العرب وأنه « يستعمله واحد ويتركه عشرة . »^(٣)

وهذا — إن صح — يدل على أن الوأد كان فيهم بنسبة واسعة هائلة ، بحيث تصبح الجزيرة مسرحاً لمجازر بشرية كل يوم . وقد ذكروا أن رجلاً واحداً هو قيس بن عاصم المنقري وأد بضع عشرة من بناته في الجاهلية ، فلما أسلم قال يوماً للنبي ﷺ : « إني وأدت اثنتي عشرة بنتاً أو ثلاث عشرة بنتاً . » ومع أن الإسلام يجب ما قبله ، لم يشأ النبي إلا أن يعظم عليه ما أتى ، وأن يفرض عليه كفارة تقابل فعلته فقال له : « أعتق عن كل واحدة نسمة . »^(٣)

(١) سورة النحل الآيات ٥٨ ، ٥٩ (٢) بلوغ الأرب ٣ : ٤٢ .

(٣) المصدر نفسه ص ٤٣ وأسد الغابة ٤ : ٢٢٠

ولأمر ما كان من جملة ما بايع عليه النبي ﷺ النساء يوم فتح مكة : ألا يقتلن أولادهن^(١)

وهذا المنكر وإن كان مصدره الاغراق في فضيلة العفة ، تعافه الطبيعة البشرية وتبرأ من قساوته وشناعته «وإذا الموءودة سئلت : بأي ذنب قتلت ؟»^(٢) شاعت هذه العادة ، ولا يعلم إلا الله كم ذهب ضحاياها من البريئات ، وكم اقشعر لهول هذه المشاهد كل يوم من قلوب وأكباد ، حتى أدرك الله تلك القبائل بالاسلام .

وبإلى جانب هذه العادة القبيحة عادة الوأد ، نرى عادة السبي : فقد جرى أكثر الجاهليين على عد المرأة كالمتاع الجامد الذي ينهبونه من أعدائهم ، فإذا كانت الغارة حمل كل فارس ما قدر عليه من النساء والذرائع ، فكانوا جميعاً ملكه يتصرف فيهم كما يشاء من يبيع وتمتع وامتهان واسترقاق ، غير آبه لأطفال حرموا أمهم . وأم أصبحت بلا أطفال ، فقطعوا بذلك الارحام وأفسدوا الأنساب .

(١) تاريخ الطبري ٢ : ٣٢٨ ومن طريف ما يروى بهذه المناسبة أن هند بنت عتبة زوج أبي سفيان كانت من جملة المبايعات ، بعد ما كان منها ما كان يوم أحد من العداوة للرسول والمسلمين ، حتى لاكت كبد حمزة عم الرسول انتقاماً لمن قتل من أهلها يوم بدر . فلما أخذ الرسول البيعة على النساء ووصل إلى قوله (ولا تقتلن أولادكن) أجابته هند : « قد رببناهم صغاراً وقتلهم يوم بدر كباراً ، فأنت وهم أعلم . » وكان عمر حاضرأ فضحك حتى استغرب

(٢) سورة كورت (٨١) الآيتان ٨ ، ٩

بل بلغ امتحان المرأة عند بعضهم أن كان الرجل إذا مات صديقه قال : « أنا أحق بامرأته » ثم ضمها إليه فاما اختارها لنفسه وإما زوجها واستولى على مهرها . اذكر هذا وقابله بما تمتع به بعض السيدات العرييات أيضاً من تطليقهن أزواجهن متى شئن ، تجد بونا شاسعاً بين المنزلتين ، وتوقن معنا بما قدمنا لك من صعوبة إطلاق الاحكام إطلاقاً عاماً . وأسوأ من ذلك أن الرجل منهم إذا مات ورث ولده — فيما يرث من متاعه — زوجاته جميعاً فتمتع بهن كما كان يتمتع أبوه . أضف إلى ذلك زواج المتعة المنتشر حينئذ بلا قيد ولا شرط . وتصور بنفسك المستوى الذي انخطوا بالمرأة إليه .

وراثتهم النساء
مع المتاع

أما الشر الذي استمر أكثر من كل هذه الشرور المتقدمة ، والذي عاش حتى زمننا هذا دليلاً على عدم استئصال الإسلام لعادات الجاهلية في بعض القبائل فهو : حرمان النساء ميراثهن .

والواقع أن مظالم الجاهلية للمرأة أبادها الإسلام جملة واحدة حتى قال عمر بن الخطاب : « والله إن كنا في الجاهلية مانعد للنساء أمراً حتى أنزل الله فيهن ما أنزل ، وقسم لهن ما قسم . » ولكن بعض العادات كانت في فريق من قبائل العرب من التمكن بحيث لم يستطع إسلامها السطحي الذي دانت به أن يمجتها . والقرآن الكريم نفسه نص على عدم تمكن الدين من كثير من الأعراب فقال : « أَلَا عَرَابٌ أُشَدُّ

حرملتهن الإرث
والمهر

كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفَقُ مُغْرَمًا
وَيَتْرَبُّ بِكُمْ الدَّوَائِرَ . . . » (١) .

وقال : « قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ، قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا
أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ . » (٢) .

بل إنا لنرى بعض الذين حسن إسلامهم من الصحابة الكرام ،
يخضعون من حيث لا يشعرون ، لعقاييل جاهلية في نظرهم إلى البنت :
هذا عمرو بن العاص دخل على معاوية وبين يديه بنته عائشة فقال :
« من هذه ؟ » فقال : « هذه تفاحة القلب » فقال له : « انبذها عنك
فوالله إنهن ليلدن الأعداء ، ويقربن البعداء ، ويورثن الضغائن . » قال
معاوية « لا تقل ذلك يا عمرو ، فوالله ما مرضى المرضى ولا ندب الموتى
ولا أعان على الأحزان مثلهن ، ورب ابن أخت قد نفع خاله . » (٣)
وكلام عمرو هذا بعد الهجرة بأربعين عاماً ، دليل واضح على أن النظرة
الجاهلية لم تستأصل تماماً من نفوس بعض الذين رُبوا على آدابها ، على

(١) سورة التوبة الآيتان ٩٨ ، ٩٩

(٢) سورة الحجرات الآية ١٤

(٣) المقد الفريد (طبعة ١٩٢٨) ١ : ٣٦٤

رغم نصف قرن قضوه في الاسلام ، بل ما يزال من أحكام بيتها آثار
تظهر فيهم من حيث لا يشعرون .

وانظر تأصل هذه العادة القبيحة عند بعض من أسلم من الجاهليين
في قصة غيلان بن سلمة الثقفي : فقد ذكروا أنه أسلم وله عشر نسوة ،
فطلب إليه الرسول ﷺ أن يختار أربعاً منهن ، وبقي على ذلك ،
حتى إذا شاخ أيام عمر بن الخطاب ، طلق نساءه وفرق ماله في بنيه ،
فأخبر عمر ، فأرسل إليه « وايم الله ! لتراجعن نساءك ، ولترجعن في
مالك ، أو لأورثنهن منك ولا أمرن بقبرك فيرجم كما يرجم قبر أبي
رغال . » ^(١) فأشفقت جاهلية غيلان من عزيمة عمر .

وأصل النظرة في حرمانهم البنت حقها من الارث : أن المال
يذهب إلى الغرباء الذين تزوجت إليهم وكثيراً ما يكونون من أعدائهم ،
وهم حراس على بقائه في أسرهم ثم هم لانطيب نفوسهم أن يؤول مالهم
إلى من لا تنتفع القبيلة بهم في القتال ، ومن قولهم المعروف في ذلك :
« لا يرثنا إلا من يحمل السيف ، ويحمي البيضة . » أضف إلى هذا
اغتنابهم مهرها أيضاً . وهو ظلم يزيد قبحاً أنه منصب على مخلوق
ضعيف ، يصبه عليه أحق الناس برحمته وهم أبواه وأهله :

(١) الاصابة : ترجمة غيلان بن سلمة ٣ : ١٩١ — وأبورغال — على ما يقول
الجوهري — كان دليلاً للجبشة حين توجهوا إلى غزو مكة فمات في الطريق فرجت
العرب قبره على خيائه .

وظلم ذوي القربى أشد مضاضةً على المرء من وقع الحسام المهند^(١)
غصب المرأة إرثها ومهرها ، هو العادة الأثرية الباقية في كثير من
أهل البادية حتى اليوم^(٢) .

وهناك نوع آخر من هذا الظلم ، يقع على اليتيمة تكون عند الرجل
« هو وليها ووارثها ، قد أشر كته في مالها حتى في العذق ، فيرغب عن

(١) طرفة بن العبد .

(٢) لست أعرف اليوم بين القبائل الضاربة في بوادي الشام وسهولها ومشارفها
من يتنزه عن هذا الظلم ، بل إنني رأيت في بعض قرى (قلمون) في الشام من
درجوا على حرمان الاناث حقوقهن في الميراث والمهر . وكانت هذه القرية وهي
(عسال الورد) على اختلاط وعلائق مع (العربان) فمن ها هنا تسربت هذه
السنة السيئة فيهم وأصبحت عرفاً من عرفهم . وإن أعجب شيء فلبعض
الاسر الكبيرة الثرية في زماننا ، الذين يخنلون شتى الاحتمالات ليحرموا الاشئ
حقها من الارث فعلى أهل الجاهلية شبراً بشبر ، يوزع رب الاسرة ثروته في
الذكور دون الاناث قبيل وفاته . وتزيد الجراءة في بعض فينص على هذا الحرمان
في وصيته كأن الاسلام لم يكن ، وكأن الله لم يبعث رسولا ولم ينزل وحياً .
وإذا كانت الاسرة أسرة صلاح ، جرت على ظلم آخر فمنعت بناتها الزواج طول
عمرهن خشية توزع الثروة وتسرب الميراث إلى الأسر الغريبة . حتى إنني لأعرف
أسرة كبيرة بدمشق واسعة المزارع والضياح فيها نحو خمسين عائساً بين شابة
وكهلة وشيخة .

هذا شيء نعرفه في الشام ، ولعل في مصر وبقية الأقطار قريباً منه ، والأمر
يعد إلى الله (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) .

أن ينكحها ويكره أن يزوجها رجلاً فيشركه في مالها ، فيعضلها «^(١)»
وقد وقع على عهد الرسول ﷺ نحو من هذا فكان « لجابر بنت عم
دميمة ولها مال وورثته عن أبيها ، وكان جابر يرغب عن نكاحها ، ولا
يزوجها من غيره خشية أن يذهب الزوج بمالها »^(١) فنزل الوحي حاسماً
بالنهي عن هذا العدوان وذلك قوله تعالى :

« وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلْ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى
عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي بَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ
لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ »^(١) .

ثم هم لا يسوون بين الرجل والمرأة في الدماء ، فلا يقتلون رجلاً
بامرأة كائنة من كانت ، إلا أنه ينبغي أن نقرر هنا أن من النادر أن
يقتل رجل امرأة إلا إذا عرف عليها فاحشة وكانت تخصه ، فحينئذ
يفسل عاره بدمها ولا شيء عليه .

الحكم الطالب

هذا ولعلنا لانكون إلى الغلو ، إذا اعتقدنا أن أمر المرأة في
الجملة غير حميد في المجتمع الجاهلي الذي تشام بالمرأة كل التشاؤم ،
حتى درج فيه هذا القول : « الطيرة في ثلاث : في المرأة والدابة

(١) انظر أسباب نزول الآية (١٢٦) من سورة النساء في كتاب (لباب النقول

في أسباب النزول) للسيوطي .

والدار»^(١) ولا يرد علينا ما درجت عليه بعض الأسر النبيلة من احترام للمرأة ولحقوقها ، فذلك شيء قليل لا يصلح إطلاقه على مجموع عرب الجاهلية ، فقد كانوا حقيقة الى الجهل والخشونة والبداوة^(٢) ، وتلك أمور تنتج في كل إقليم ما أنتجت في جزيرة العرب ، فامتياز بعض أشرف الحواضر كمكة والمدينة شذوذ لا يقاس عليه .

ولا يستطيع أحد أن يزعم — بعد هذا — أن الحال التي وجدت فيها المرأة العربية من وأدٍ وسبي وحرمان ميراث وعضل وغصب مهر وامتهان . . . هي حال حسنة ، والحكم دائماً على المجموع لا على الجميع .

(١) انظر ص ١٢٧ (الاجابة لإيراد ما استدركنه عائشة على الصحابة)

للزركشي (المطبعة الهاشمية بدمشق ١٩٣٩)

(٢) وكثيراً ما كانت قسوتهم تعدوا الاناث الى الذكور فقد روى عروة أن عائشة قالت : « جاء إلى النبي ﷺ رجل من أهل البادية فقال : يا رسول الله أتقبلون الصبيان ؟ » قال : (نعم) قال « فوالله ما تقبلهم » قال : « أو أملك إن كان الله نزع من قلبك الرحمة » — فتح الباري ١٠ : ٣٦٠ (المطبعة الأميرية) وصحيح مسلم ٢ : ٢١٣ (المطبعة الاميرية) .

الفصل الثالث

صنيع الاسلام للمرأة

... ثم جاء الإسلام : فغيّر كل شيء ، وأول ما بدأ به مظالم المرأة فقفى عليها قضاء مبرماً وعني أشد العناية بأشعار الرجل أن المرأة مخلوق مثله في الانسانية ، ومكّن لهذا الشعور التمكين كله فتجد في التنزيل العزيز أمثال هذه الآيات .

« هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها » ^(١) ،

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً » ^(٢) ،

« والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة » ^(٣) ،

(١) سورة الأعراف ٧ الآية ١٨٨ .

(٢) سورة النساء ٤ الآية ١ .

(٣) سورة النحل ١٦ الآية ٧٢ .

« فاطر السموات والارض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً »^(١) .. الخ
ولأمرٍ ما كرر الوحي الاشارة إلى أن الرجل والمرأة خلقا من
نفس واحدة ، فهو يريد استئصال امتحان راسخ في نفوس بعضهم^(٢)
للنساء ، ثم عرف الاسلام لها حقوقها كاملة ، وأراحها من عنت الجاهلية
وإرهاقها بعد أن عانت منها ما عانت ، ثم بوأها المقام المحترم
في بيتها وفي المجتمع ، وأوصى بها ، وإليك بعض التفصيل :
كان وأد ، فجاء الاسلام بتحريمه فلم تكن مؤودة منذ انتشار ! بطل الظالم جلة
الاسلام حتى يومنا هذا ،
وكان مبي ، فحرم الاسلام السبي منذ حرم الغزو .

(١) سورة الشورى ٤٢ الآية ١١ .

(٢) لقد غالى بعض الباحثين في (تمميم) الحكم على العرب دون حجة مقبولة
أو استقراء صحيح ، فزعم الكاتب الروسي أحمد أغايف في كتابه (حقوق
المرأة في الاسلام - ترجمة سليم قبعين) أن العرب كانوا يبيعون نساءهم يبيع
الرقيق أو يستبدلون بهن بعض الحيوانات الاهلية (؟؟؟) ص ٢٩ - ولم يذكر
أغايف المصدر الذي اعتمد عليه ، ولا الحوادث التي استنبط منها حكمه الجريء
ولنفرض جدلا أن مثل هذا الحادث وقع مرة أو مرتين في بعض البوادي في عام
قحط أو شدة ، فليس يبنى حكم على حادث أو حادثين . على أي - على كثرة تنقيبي -
لم أعر على أدنى خبر يشير الى استبدال عربي حيوانا بامرأة . ولست أشك أن
هذا الحكم من جملة أحكام كثيرة يصدرها بعض الباحثين المستشرقين (في شطحاتهم
وشلفاتهم) دون استناد إلى شيء .

وكان امتحان لإنسانيتها ، فسوى الاسلام بين دم الرجل ودم المرأة وصار يقتل قاتلها ، كما سوى بينهما في حد القذف .

وكان استئثار دونهن بالمهور ، فجعلها الاسلام حقاً لهن خالصاً لا ينزعه إلا ظالم .

وكان تعدد الزوجات غير محدود ولا مقيداً ، فجاء الاسلام محدداً له ، مقيداً إياه بقيود كفيلة بالقضاء عليه ، كما فعل بالرق .

وكان إكراه اللقيطات على البغاء ليكسبن لأسيادهن مالاً ، فجاء الاسلام معلناً : « وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ »^(١)

وكان قتل للأولاد من الفقر أو من خشيته ، فجاء الاسلام حامياً لهم مطمئناً آباءهم على أرزاقهم وأرزاق أولادهم مخاطباً الفقراء منهم بهذا القول الكريم :

« وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ »^(٢)
وغير الفقراء بقوله :

« وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاهُمْ
إِنْ قَتَلْتَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا »^(٣) .

(١) سورة النور ، الآية ٣٣

(٢) سورة الأنعام الآية ١٥١

(٣) سورة الاسراء الآية ٣٦

وكان حرمان ميراث ، فقرر لمن الاسلام حقوقهن فيه: «لذَّكَرٍ
 مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيْنِ»^(١) وجعل هذه الحقوق فريضة من الله نافذة.
 وكان عضل (منع) لمن عن الزواج طمعاً في أن يفترقن أنفسهن
 بمال ، أو يمتن فيرثوهن ، فجاء الاسلام ناهياً عنه زاجراً :
 « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا
 وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْنَهُنَّ »^(٢) .
 وكان إساءة عشرة لمن ، فنزل الوحي بهذه الكلمة الطيبة الجامعة :
 « وَعَاشِرُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ . »^(٣)

وكان الولد يرث زوجات أبيه في جملة المتاع ، فجاء الاسلام رادعاً
 أشد الردع عن هذا المنكر بقوله :
 « وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ
 سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا »^(٤) .
 وكان ... وكان ... مما أبطله الاسلام جملة واحدة .
 ثم سن لها تشريعاً مفصلاً في الإرث والزواج والطلاق مبيناً مالها

(١) سورة النساء ، الآية ١٠

(٢) سورة النساء ، الآية ١٨

(٣) سورة النساء ، الآية ٢١

وما عليها ضمن هذا الأساس (الحقوقي) العادل « وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ »^(١) :

جعل المهر حقاً خالصاً للمرأة ونهى عن مسه بأي سبيل كان :

« وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً »^(٢) .

« وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا، أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا. وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا »^(٣) .

وجعل إحسان العشرة الزوجية من أهم ما يجب على الرجل التزامه ،

(١) سورة البقرة الآية ٢٢٨

(٢) سورة النساء الآية ٣

(٣) سورة النساء الآيتان ١٩ ، ٢٠ ذكر ابن الجوزي في كتابه في سيرة عمر ابن الخطاب : أن عمر نهى الناس عن زيادة المهور وخطب فيهم قائلاً :

« لَا تَزِيدُوا فِي مَهْرِ النِّسَاءِ عَلَى أَرْبَعِينَ أَوْقِيَّةً نَحْوِ (أَرْبَعِمِائَةِ دِرْهَمٍ) ... فَمَنْ زَادَ أَلْقِيَتْ الزِّيَادَةُ فِي بَيْتِ الْمَالِ » . ثم نزل فقامت امرأة من صف النساء طويلة في أنفها فطس فقالت : « مَا ذلِكَ لَكَ » قال : « وَلَمْ » قالت : « لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ : ... وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا ؟ » فقال عمر : « امْرَأَةٌ أَصَابَتْ وَرَجُلٌ أَخْطَأَ » ، « كُلُّ النَّاسِ أَفْقَهُ مِنْ عَمْرِ » ثم رجع فركب المنبر فقال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ أَنْ تَزِيدُوا النِّسَاءَ فِي صَدُقَاتِهِنَّ (مَهْرِهِنَّ) عَلَى أَرْبَعِمِائَةِ دِرْهَمٍ ، فَمَنْ شَاءَ أَنْ يَطْلِيَ مِنْ مَالِهِ مَا أَحَبَّ وَطَابَتْ بِهِ نَفْسُهُ فَلْيَفْعَلْ »

وكره الشارع الطلاق إلى الناس وبفضه وشدد فيه ، ورتب على الرجل إن أوقعه واجبات غير سهلة ، بل إنه توقع للرجل خيراً كثيراً إن هو أبقى على العلاقة الزوجية ، حتى حين تشتد الكراهية بين الزوجين قال الله تعالى :

« وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَعْسَى أَنْ تَكْرَهُنَّ هُوَ أَشْيَأُ وَيَجْعَلُ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ^(١) »

وأجل أجلاً للمطلقات : مدة طويلة يبقين فيها في بيوتهن ، ليرجع الرجل إلى نفسه فيتلافى ما فرط منها ، وهذا غاية الاحتياط في توثيق هذا العقد بين الزوجين ... حتى إذا أعيت كل حيلة ، وتنقص عيش الزوجين ، ولم يكن ثمة من الفراق بد ، كان الواجب على الزوج إذا اعتزم الطلاق : « تسريحٌ بإحسان ^(٢) »

وهكذا نجد (المعروف) و (الاحسان) هما أساس كل علاقة زوجية ، وهما الأساس أيضاً بعد انفصام تلك الملائق .

وقرر في مواريث النساء هذه القاعدة : « لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ

(١) سورة النساء الآية ١٨

(٢) سورة البقرة الآية ٢٢٩

وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا^(١) .

ويُسن للمرأة حقوقها من الارث : زوجاً وأماً وبناتاً وأختاً، فصارت كالرجل ذات حقوق أصلية منصوص عليها بالتفصيل .

ولولا أن الكلمة لاتسع لشرح أكثر لأنينا على جميع ما فرض
لهن من حقوق حتى صرن في المجتمع الاسلامي بمكانة (حقوقية)
تحسدها عليها متمدنة القرن العشرين . فلا أقل إذاً من أن نحيل القارىء
المعجول على مصدر واحد هو القرآن الكريم ، فليمن في تدبر هؤلاء
الآيات الكثيرة الخاصة بالنساء : توصيةً بهن وتشريعاً لهن ، ليقراً في
[سورة البقرة : الآيات (٢٢١ - ٢٤٢)] ، وفي سورة النساء : الآيات
(١٠ - ٢٥ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٧٥) ، وفي سورة النور :
الآيات (٢ - ١١ ، ٢٣ ، ٣١ - ٣٤ ، ٦٠) وفي سورة الطلاق : الآيات
(١ - ٨) [ففيهن جميعاً تفاصيل وافية عن حقوق النساء في الزواج
والطلاق والميراث ، وفيهن تشريع كامل لجميع علائقهن وأحكامهن
في الحدود والعبادات والمعاملات^(٢) .

(١) سورة النساء الآية ٦

(٢) يجد الباحث الصابر في مطولات كتب الفقه ، رعاية ورفقاً كبيرين ،
ومن طلب أحكام النساء في أبوابها الفقهية وأمن في تفاصيلها وخاصة حقوقها على
الوالد والزوج والولد .. أيقن بقوة مركزها الاجتماعي والحقوق .

هذا ما منح الاسلام المرأة من حقوق ، فهل قامت هي بواجب الشكر عليها ؟

نعم :

فتحت المرأة العربية عينها — لما أظلتها راية الاسلام — على رجال غير الرجال ، ومجتمع غير المجتمع ، ودين غير الدين ، فكأنها نشطت من عقل ، فشمرت عن ساعدها ، وأخذت من هذا الدين الجديد نصيبها الأوفى ، وكان شكرها لله عليه شكراً عملياً .

قاست في أوله ما قاسى الرجال من عذاب وهجرة واضطهاد وأذى ، ثم انتظمت في صفوف المقاتلين إعلاء لكلمة الحق ، وذوداً عن دين الله وعن رسوله ، فقاسمت الرجل شرف الجهاد وآبت بثوابه وكرامته ، وليس بعد بذل الروح غاية في الشكران .

كان للنساء بيعة في القرآن كما للرجال بيعة : ذكر الله رضاه عن الذين بايعوا تحت الشجرة بيعة الرضوان يوم الحديبية فقال : « إِنْ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ » ^(١) « لقد رضي الله عن المؤمنين إِذْ يَبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا » ^(١) ذكر بيعة الرجال هذه كما ذكر بيعة النساء في قوله :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يَشْرَكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِهْتَانٍ يَفْتَرِيهِ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَمْصِيكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعْنَهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »^(١)

وكان لهن هجرة كما للرجال هجرة، وجهاد كما لهم جهاد^(٢).
ويكاد الوحي لا يذكر الرجال في مكرمة أو تشريع أو ترغيب أو ثناء، إلا ذكر النساء معهم. وما أكثر ما تجدد في التنزيل العزيز أمثال قوله تعالى :

« إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَاتِنِينَ وَالْقَاتِنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ

(١) بمسورة المتحفة ، الآية ١٢ = وقد ذكروا أن رسول الله كان يقول لهن بعد ذلك : « فيما استطعن وأطعن » ، فيقولن : « الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا »

(٢) كتب فخر بن عامر الحروري إلى ابن عباس يسأله : « هل كان رسول الله يفزو بالنساء ؟ » فكان من جواب ابن عباس : « ... وقد يفزو بهن فيداوين الجرحى ويخذلن (يبطئن) من الغنمة .. » انظر تيسير الوصول ١ : ٢٣٥ عن مسلم وأبي داود والترمذي

فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا» (١).

لقد رفع القرآن منزلة المرأة الأدبية واستنقذها من الحضيض وبوأها الأوج ، فبقيت في سماء المجتمع الاسلامي شيئاً مقدساً تتناول إليه الأنظار بالحرمة والرعاية ، حتى كان يخدمهن في بيوتهن الخلفاء أنفسهم (٢) ، وحتى ذكروا ان عمر بن الخطاب خرج يوماً ومعه الناس ، فر بمجوز فاستوقفته فوقف ، فجعل يحدثها وتحذنه ، فقال له رجل : « يا أمير المؤمنين حبست الناس على هذه العجوز ؟ » فقال : « ويلك أتدري من هي ؟ هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات ، هذه خولة بنت مالك بن ثعلبة التي أنزل الله فيها : » قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها . الآية (٣) »

وخبّر خولة هذه ممتع طريف ، أتت تشكو زوجها أوس بن الصامت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وإليك حديث عائشة عنها ، قالت عائشة :

(١) سورة الأحزاب ٣٣ الآية ٣٥

(٢) تسابق الشيخين أبي بكر وعمر إلى بر امرأة في جوف الليل أمر مشهور في التاريخ.

(٣) الإصابة : ٨ : ٦٩

« تبارك الذي وسع سمعه كل شيء ، إني لأسمع كلام خولة ويخفى علي بعضه ، وهي تشتكي زوجها الى رسول الله وتقول : « يا رسول الله اكمل شبابي ، ونثرت له بطني . . حتى إذا كبرت سني ، وانقطع ولدي ، ظاهر مني . اللهم إني أشكو إليك » فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآيات :

« قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَ كَمَا إِنْ اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ . وَالَّذِينَ يظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ ، إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ »^(١) الخ الآيات . اهـ

في هذا الجو من الاحترام والتقدير تمتعت المرأة بنعمة الإسلام



(١) أول سورة المجادلة . والظاهر أن يقول الرجل لامرأته : « أنت علي كظهر أمي » فتحرم عليه — انظر (لباب النقول في أسباب النزول) للسيوطي

الفصل الرابع

شخصيتها الحقوقية

استطعنا حتى الآن أن ندرك المنزلة الاجتماعية السامية : التي رفع
 الإسلام إليها المرأة بعد طول إهمال وامتهان . وبقيت البلدان
 الإسلامية هي الأماكن الفريدة التي للمرأة فيها استقلال شخصي
 يحترمه القانون . وبقيت أوروبا حتى العصور القريية تنظر إلى المرأة
 نظرة امتهان ورثتها عن العصور المظلمة ، فلما تمكنت حضارتها منحت
 المرأة حظاً غير قليل من الاحترام وإن تكن شأبه أيضاً بنصيب غير
 قليل من الابتذال .

فأما الأمر الخطير الذي لا يزال القانون الاسلامي سابقاً فيه كل
 القوانين الحديثة ، فهو ما يتعلق بشخصية المرأة (الحقوقية) . لقد منحها الله
 منذ أربعة عشر قرناً ، حق التصرف المستقل بكل ما تملك كما منح الرجل ،
 لا يزيد أحدهما على الآخر شيئاً . وهذا هو الشيء الذي لا تزال قوانين

الحضارة الغربية قاصرة دون بلوغه حتى اليوم. فلنتبع التدرج الفطري
للأنثى في إجمالنا ماسبق لها من حقوق :

على والديها القيام بحسن تربيتها حتى تلحق بالنساء ، فإذا مات
أحدهما كان لها من تركته حصة مقررّة تستولي عليها . وعلى أبيها أو
أخيها النفقة عليها حتى تتزوج ، فإذا أدركت كان لها ملء الحرية في
اختيار زوجها ، وليس لأي مخلوق : والد أو حاكم أن يحد شيئاً
من هذه الحرية التي وهبها لها الله كاملة غير منقوصة ،^(١) فإذا أصبحت
زوجة للرجل ، كان لكل منهما على الآخر حقوق وله مثلاً : « ولهنَّ
مثلُ الذي عليهنَّ بالمعروف . » وعليه النفقة عليها من ماله دون أن
تكلف (على سبيل الوجوب) طبخاً ولا غسلاً ولا إرضاعاً ، فإذا
صارت أمّاً فقد تم لها أسمى ما نطمح إليه من الاحترام والتبجيل ، وعلى
الولد أن يبذل كل وسع في مرضاتها وإطاعتها وراحتها .

وفي جميع هذه الأدوار تبقى مستقلة بما تملك لا يشاركها حق

(١) جاءت فتاة إلى رسول الله ﷺ فقالت : « إن أبي زوجني من ابن أخيه
ليرفع بي خسيسته » فجعل ﷺ الأمر إليها ، فقالت : « قد أجزت ما صنع أبي ،
ولكن أردت أن أعلم النساء أنه ليس إلى الآباء شيء » . اه أرادت هذه الفتاة أن
تعلم النساء والرجال معاً أن الشريعة لم تجعل للوالد حقاً ما في أن يكره ابنته على
الزواج بمن لا ترضى .

التصرف فيه مشارك. لزوج ولا أخ ولا والد. ولها نصيب مفروض — على حسب عدد الورثة ودرجة قراباتهم — من ميراث الأب والأخ والزوج والولد^(١)، كما أن مهرها حق خالص لها تتصرف فيه تصرفها بعيراتها وملكها.

ولايتها على أموالها وعقودها المدنية :

مضى على المرأة المسلمة (١٣٦٤) عاماً وهي لا تختلف عن الرجل في شيء، فيما يتعلق بممارسة الحقوق المالية وإليك في ذلك هذا النص الشرعي من كتاب فقه حديث :

« سوى الشارع بين الذكر والأنثى في الولاية على المال والعقود، فتى بلغت المرأة سن النكاح وهي رشيدة، كان لها أن تتصرف بمالها مستقلة بجميع التصرفات القولية والفعلية، وأن تعقد عامة العقود المدنية من بيع وشراء وإجارة وشركة ومساقاة ومزارعة وقراض ورهن وعارية ووديعة وهبة ووصية ووصاية وغيرها، وأن توكل فيها من شئت أو تتوكل بها، وليس لأبيها أو زوجها ولا لغيرها أن يتدخل في ذلك لقوله تعالى :

(١) لا تخول الأنظمة المسيحية للأمم حقاً شرعياً ما على ولدها، فقد يكون من ذوي الملايين فيساعدوها — إن شاء — تبرعاً، فإذا مات فلا حق لها في تركته البتة — السيد أمير علي ص ١٤ مركز المرأة في الاسلام .

« وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم »^(١) وهذا ماذهب إليه جمهور الأئمة والعلماء^(٢) ولها إضافة على ماتقدم كله حق التقاضي مع خصومها على قدم المساواة بالرجل .

هذا وإن أعجب شيء فلتلك النكسة الرجعية التي يتبلى بها التقليد الأعمى عبيده : لقد تمتعت المرأة العربية بحريتها الكاملة في التصرف بأموالها ، في كل الأقطار والأعصار ، إلا أن بعض المشرعين في أحد البلدان العربية اليوم ، قعدت همهم دون أن يبنوا التشريع المكلفين بوضعه ، على أسس مستمدة من عادات الوطن وروحه وتعاليمه وتاريخه ، واندفعوا بكل حماسة إلى نسخ قانون أجنبي بحذافيره ، قانون وضع في بلد غير بلدنا ، ولأمة غير أمتنا ، ولا اعتبارات محلية وتاريخية ودينية لا وجود لها عندنا البتة ، كأن التشريع لا يكلف القائم به أكثر من (شحنة تجارية بالبريد) ، فكان من هذا التجاهل للأصول التي ينبغي أن يستمد منها كل تشريع ، أن حرمت المرأة العربية في هذا القطر من (الأهلية التجارية) إذا لم يأذن زوجها . وإذا

نكسة رجعية
حديثه

(١) سورة النساء الآية ٥

(٢) حقوق المرأة المسلمة للشيخ نديم الملاح ص ١١٨

سألت عن السبب في هذه الرجعية الذميمة لم تجد جواباً غير أن القوانين الفرنسية (الحديثة !!) التي طُلبت بالبريد هكذا جاءت !!^(١)

(١) حضرت المؤتمر الأول للمحاميين العرب بدمشق الذي عقد في صيف السنة الماضية (١٩٤٤ م) وكانت هذه القضية من أشد مآثر السخط والاستنكار والراء في نفوس الأساتذة المستمعين . وإليك نصها كما جاء في محاضرة الاستاذ محمد صالح بك عميد كلية التجارة في الجامعة المصرية ، منقولاً عن مجلة نقابة المحامين بدمشق ص ٣٣٩ - ٣٤٠ :

سنة ١٣٦٣ هـ = ١٩٤٤ م

... يجب ألا تقع في الأخطاء التي وقع فيها أسلافنا فننقل قانوناً أجنبياً برمته دون أن تدبر أحكامه وتفهم مراميهِ .. [ثم ذكر شاهداً : نصاً قانونياً فرنسياً وضع لأسباب تاريخية محلية فنقل الى القانون المصري نقلاً حرفياً ولم يكن شيء من الاسباب المذكورة قائماً في مصر] ص ٣٤٠ .. كذلك مانص عليه قانون التجارة اللبناني في المادة ١١ من « أن المرأة المتزوجة مها تكن أحكام القانون الشخصي الذي تخضع له لامتلاك الاهلية التجارية الا اذا حصلت على رضى زوجها الصريح أو الضمني .. »

والمفهوم من هذا النص أن المشرع تمعد الإخلال بالقاعدة المقررة في الشريعة الإسلامية وهي تساوي المرأة والرجل في الحقوق المدنية والتجارية . فالمرأة المسلمة لها ذمة مستقلة عن ذمة زوجها ، ولها أن تصرف في أموالها بلا حاجة الى الحصول على إذنه .

فهل تدبر المشرع اللبناني ما في هذا الخطر من تناقض ، إذ يترتب عليه أن المرأة المسلمة يمتنع عليها التصرف في أموالها المنقولة بدون إذن الزوج . وعندي أن تساوي المرأة مع الرجل في الحقوق هو قاعدة من قواعد النظام العام في الاقطار العربية ولا يملك المشرع العادي الإخلال بها . اهـ

وهي لا تزال تحرم المرأة ممارسة حقوقها المالية حتى الآن !!^(١)
ولا أظن إلا أن رجال القانون في هذا القطر سيفضون للمرأة أولاً
ولسمعة بلدهم القضائية ثانياً فيزيلوا هذا الخطأ المعيب من قوانينهم .

★ ★ ★

ولايتها قضاء .

لم يكتف (الشارعون) في البلاد الإسلامية بهذا السمو في
تقديس (حقوقية) المرأة، بل بالغوا فطلبوا لها حتى مالا تؤهلها
فطرتها له في الغالب، لقد شرعوا لها أن تكون قاضية : فأجاز أبو
حنيفة قضاءها في الأموال، ثم جاء الإمام الطبري فأجاز قضاءها
وحكمها في كل شيء : الأموال وغيرها^(٢) . وهو شيء لا سبيل إلى
أن تحلم به المرأة الأوروبية والأميركية حتى اليوم . أما اللاتي
مارسن شيئاً أكبر من القضاء فهن قليلات، وإن التاريخ ليذكر أسماء
سيدات محترمات أدرن ملكاً وهن وصيات على أولادهن فكن أمثلة
تحتذى في حسن التدبير وكمال العقل وسعة الحيلة وبعد النظر .

(١) نشرت مجلة (المختار من ريد رزدايجست - الطبعة العربية) في ص ١٠٣
من عدد سبتمبر سنة ١٩٥٧ أنه بعد الحرب العالمية الثانية « أصدرت جمهورية بون
دستوراً منحت فيه المرأة المتزوجة لأول مرة الحق القانوني في اقتناء الممتلكات » !!
(٢) ذكر السيد أمير علي في محاضراته . أن هذا الحكم قد عمل به ، أي نصبت
بعض النساء قاضيات ففوض بين الناس في القرن الثامن المسيحي - (مركز المرأة
في الاسلام - مطبعة زخور) ولم أدر مصدر السيد الذي اعتمد عليه في ذلك ، ولا
في أي بلد كان هذا ؟ ولست أستبعد .

الفصل الخامس

جهاد الرسول في سبيل المرأة

« وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُتَفَكَّرُونَ » (١)

تلطف الرسول
في القضاء على
النظرة الجاهلية

أراد صاحب الشريعة الإسلامية ﷺ أن يتعهد بنفسه ما تبقى من آثار الجاهلية ونظرها إلى المرأة فيقضي عليه . والتشريع تكفل بكل ما يتعلق بمعاملتها ، وكاد لا يبقى على شيء من الفكرة الجاهلية نحو المرأة . ولكن كيف السبيل إلى استئصال ما لا تشعر به النفوس ، وما لا سبيل إلى اجتثاثه بتشريع : كميل الوالدين إلى الذكر أكثر من الأنثى : هذا الشيء الذي قدمنا أنه مركوز في غرائز الناس كافة ؟

ذلك ما عالج أحكم من تجرد لطب النفوس ، وأبصر خلق الله في دأها ودوائها . فقد رأى الناس من عمل الرسول نفسه وسمعوا من

كلامه في هذا الموضوع ما بعث نفوسهم إلى التنزه عن بقايا الجاهلية الضئيلة ، فتساقبت وتحمست لإعزاز الأثني وإكرامها حتى تأصل في النفوس برها والحدب عليها ، وقر فيها احترامها وتفضيلها ، وإليك ما تلسمه من آثار هذا الانقلاب النائر الحكيم :

كان الناس يترسمون في معاملة أزواجهم ما يفعله النبي ، وكان ﷺ معهن لين الجانب حلو العشرة سهل المقادة كن يراجعنه ^(١) في كثير من أموره ، ويردذن عليه حتى صرن قدوة يقتدي بها بقية النساء ؛ فاذا أنكر زوج حق زوجته في مراجعته احتجت عليه بعمل الرسول فأسكتته وما أطرف حديث عمر بن الخطاب يقص فيه ماجرى له معهن ، ويصف هزيمته وكيف انكسر لهن ، على رغم شدته وغلظته ، قال :

ماملته أزواجه
واحتجاج النساء
بها

« والله ^(١) » إن كنا في الجاهلية ما نمد للنساء أمراً حتى أنزل الله فيهن ما أنزل ، وقسم لهن ما قسم ، فبينما أنا في أمر آتمره إذ قالت لي امرأتي : « لو صنعت كذا وكذا » فقلت لها : « وما لك أنت ولما هنا ؟ وما تكلفك في أمر أريده ؟ » فقالت لي : « عجباً لك يا بن الخطاب ، ما تريد أن تراجع أنت وإن ابنتك (تعني السيدة حفصة بنت عمر أم المؤمنين) لتراجع رسول الله حتى يظل يومه غضبان » فأخذ

ردائي ثم أخرج مكاني حتى أدخل على حفصة ، فقلت لها : « يا بنية إنك لتراجعين رسول الله حتى يظل يومه غضبان ؟ » فقالت حفصة : « والله إنا لتراجعنه » فقلت : « تعلمين أني أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله ... » ثم خرجت حتى أدخل على أم سلمة لقرأتي منها فكلمتها فقالت لي « عجباً لك يا بن الخطاب : قد دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله وأزواجه ؟ » فأخذتني أخذاً كسرتني به عن بعض ما كنت أبجد ، فخرجت من عندها .

تم للمرأة - على الزمان - من المسكنة ما صارت معه تجير على المسلمين فيحترمونها جوارها . ذكرت ذلك عائشة فقالت : « إن كانت المرأة لتجير على المؤمنين فيجوز . » وقد أجازت أم هاني بنت أبي طالب رجلين من المشركين من أمهاتها كانا أسيرين ، فأجاز الرسول جوارها قائلاً : « أجزنا من أجزت وأمننا من أمنت يا أم هاني » وهو حديث مشهور .^(١)

وهل علي من جناح إذا أنا وقفنك في حادث طريف ، على تلك الحرية التي متع الله بها المرأة العربية في الاسلام فارستها أو سعى ممارسة ؟ إنه حادث (غرامي) ولست أخرج من ذكره لك هنا فان رسول الله نفسه كان شفيعاً في هذا الحادث للمحب الولهان :

(١) انظر تفصيل هذا الخبر في سيرة ابن هشام عند كلامه على غزوة الفتح الأعظم ٣٤٣ هـ (الطبعة القديمة) وذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى ص ٢٢٣ .

جارية ضعيفة مملوكة اسمها (بريرة) وزوجها عبد أسود اسمه مغيث كان شديد التعلق بها ، اشترت عائشة الجارية فأعتقتها ، فلما أعتقت كان لها الخيار بمقتضى الشرع بين أن تبقى عند زوجها أو تتركه وتعتد منه ، فلما خيرها الرسول ، اختارت نفسها وتركت زوجها . فقامت قيامة هذا الزوج المسكين وهام في سكك المدينة يطوف وراءها ويبكي وإن دموعه لتتحد على لحيته ، يترضاها وهي تقول : « لا حاجة لي بك » وبلغ ذلك الرسول ﷺ فرقاً له وقال لبريرة : « لو راجعتيه » فقالت : « أنا أمرني ؟ » ، « أشيء واجب علي ؟ » فقال : « إنما أنا شافع » فقالت : « لا حاجة لي فيه » فجعل النبي يعجب وقال للعباس :

« يا عباس ألا تعجب من حب مغيث لبريرة وبغضها له ؟ » ^(١)

وهكذا اعتذرت هذه الجارية عن قبول شفاعة النبي نفسه ، متمتعة بحريتها القانونية أبعد تمتع ، وكان صنع الرسول هنا إقراراً عملياً لهذه الحرية .

وأثمر هذا المسعى في رفع شأن المرأة حتى آتى أكله ورأى النساء أنفسهن والرجال سواسية ، حتى اعتددن بأنفسهن الاعتداد كله ، وحتى قالت عائشة : « إنما النساء شقائق الرجال . » وعائشة إنها القارىء زعيمة الأخذ بناصر المرأة والمنافحين عنها بلا منازع ، وإليها وحدها

(١) صحيح البخاري ، ومسنند أحمد ٨١/٦ والاجابة لإيراد ما استدر كته عائشة على الصحابة ص ٤٩ والسمط الثمين ١٨٢ .

تتطلع أبصار المستضعفات ، لما تم لها من المكانة الكبيرة في العلم والأدب والدين ، حتى تقطعت دون مقامها الاعناق ، وكانت أستاذة لمشيخة الصحابة الأجلاء في كثير من أمور العلم والدين . ولبت الخلفاء الراشدون يرعون منزلتها ويشاورونها ويسألونها المسائل ويرجعون إلى رأيها ، وهي واقفة بالمرصاد لكبارهم : تصحح لهم كلما رأيت خطأ في حديث يحدثون به أو حكم يصدرونه . وقد ألف الزركشي كتاباً قائماً برأسه ، كسره على الأمور التي استدركتها على أعلام الصحابة . ولا بأس بإيراد استدراك واحد .. على سبيل المثال — على عبد الله بن عمرو بن العاص أودعته نكتة لاذعة ، كثيراً ما كانت ترسل أمثالها في استدراكاتها عليهم :

بلغها أن ابن عمرو هذا يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رؤوسهن ، فقالت : « يا عجباً لابن عمرو : يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رؤوسهن أفلا يأمرهن أن يحلقن رؤوسهن ؟ ! . . . لقد كنت أغتسل أنا ورسول الله من إناء واحد وما أزيد أن أفرغ على رأسي ثلاث إفراغات .. » (١)

أما إذا تعلق الأمر بكرامة المرأة ولو من بعيد ، فيالهول ما يلقي المخطيء من عنفها ، وإذا لا يقوم لغضب السيدة شي : دخل عليها رجلان فقالا : « إن أبا هريرة يحدث أن نبي الله كان يقول : « إنما الطيرة في

المرأة والدابة والدار ، فطار شقة منها في السماء وشقة منها في الأرض وقالت : « والذي أنزل القرآن على أبي القاسم ماهكذا كان يقول ، إنما قال : كان أهل الجاهلية يقولون : الطيرة في المرأة والدابة والدار (١) » . وبلغها عن أبي هريرة - وكم كان يلقي من عائشة - أنه قال : « قال رسول الله ﷺ « يقطع الصلاة المرأة والحمار والكلب . » فقالت عائشة معنفة مصححة : « شبهتمونا بالحخير والكلاب . والله لقد رأيت رسول الله يصلي وأنا على السرير بينه وبين القبلة مضطجعة فتبدولي الحاجة فأكره أن أجلس فأوذي رسول الله ، فأنسل من عند رجله (٢) » . فيخضع الأصحاب لفتواها ، ويزيدونها على الزمن اجلالاً .

وإلى السيدة عائشة يرجع الفضل الأكبر - بعد رسول الله - في إعظام الناس المرأة الاعظام اللائق ، حتى ظهر كثير من اللائي طمحن إلى اقتفاء أثرها في الشجاعة الأدبية والجرأة ، وحتى قالت بعد ذلك القائلة - وسئلت عن زوجها - : « زوجي من أنا بعله . » (٣)

(١) المصدر السابق ص ١٢٧ .

(٢) المصدر السابق ١٧٠

(٣) لهذه القائلة خبر طريف يفيدنا في موضوعنا ولا بأس في سرده : مات كثير عزة الشاعر المشهور ، فما تخلفت امرأة بالمدينة ولا رجل عن جنازته ، وغلب على الجنازة النساء يبكين ويذكرن عزة في نديتهن له ، فقال الامام محمد الباقر : « أفرجوا لي عن جنازة كثير لأرفعها ، فجمع الناس يدفعون النساء عنها وجمع الباقر يضربهن -

ولم يألُ الرسول في بث حكمه الغالية في قلوب الأصحاب وصيةً بالنساء ، كلما آنس داعياً إلى القول . واستفاضت هذه الأحاديث استفاضة شافية توصي بالمرأة أما ، وتوصي بها زوجها ، وتوصي بها بنتاً ، وتوصي بها جنساً :

فأما الوصية بها أما فقد نزل بها الروح الأمين بهذا البيان المؤثر المعجز : « وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، وبالوالدين إحساناً : إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٌ وَلَا تُنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ^(١) » .

— بكه ويقول : « تنحين يا صواحبات يوسف » فالتدبت له امرأة منهن فقالت : « يابن رسول الله لقد صدقت ، إنا لصواحبات يوسف وقد كنا له خيراً منك له . » فأمر الباقر أحد مواليه أن يجيئه بها بعد الانصراف من الجنازة ففعل ، فرأى الباقر امرأة كأنها شرارة النار فقال لها : أنت القائلة : إنك ليوسف خير منا ؟ قالت : « نعم ، تؤمنني غضبك يابن رسول الله ؟ » قال : « أنت آمنة من غضبي فأبيني » قالت : « نحن يابن رسول الله دعواناه إلى اللذات من الطعام والمشرب والتمتع وأنتم معاشر الرجال ألقىتموه في الحب وبتموه بأجنس الأنثى ، ثم حبستموه في السجن . فأينا كان عليه أحنى وبه أرف ؟ » فقال الباقر : « لله درك ، ولن تغالب امرأة إلا غلبت » ثم قال لها : « ألك بعل ؟ » قالت : « لي من الرجال من أنا بعله ! » فقال : صدقت ، مثلك من تملك بملها ولا يملكها » وكانت هذه المرأة زينب بنت مصعب — الأغاني ٣٧/٩ طبعة دار الكتب . وليس بين هذا الحادث وموت عائشة أكثر من نصف قرن .

وأما الوصية بها زوجاً فانظن أن هناك منزلة للزوجة أسمى (إنسانية) من منزلة رفعها إليها الإسلام، وصحح بها النظرة المعكوسة التي كانت عند الجاهليين فاقراً إن شئت:

«وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ»^(١)

وهل ينسى مسلم أو عربي هذه الأقوال النبوية الرائعة:

«خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»^(٢)،

«ما أكرم النساء إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم»^(٣).

«أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم»^(٤)،

وكان بعض الصحابة يضربون نساءهم - استمراراً لمعادات الجاهلية -

فشكوتهم عند أزواج النبي ﷺ. وأراد النبي أن يبطل هذه العادة

الجاهلية باللفظ والحكمة فكان مما قال لأصحابه:

«... ولقد أطاف بآل محمد نساء كثير يشكون أزواجهن، ليس

أولئك بخياركم»^(٥).

(١) سورة الروم ٣٠ الآية ٢١، وبعد اثني عشر قرناً من زول هذه الآية تراجع الأوروبيون عن نظرتهم إلى المرأة، فاعترفوا أخيراً بأنها إنسان، وأنها مخلوق غير لئيم. ثم جاؤوا اليوم برواجون الابتذال والخلاعة وتهديم الأسر وخراب البيوت... باسم: حرية المرأة!!

(٢) نداء للجنس اللطيف ص ١٣٣ عن الترمذي.

(٣) رياض الصالحين ص ١٣٣ ومستأني الوصية بالبنات ثم بجنس النساء عامة بمد قليل.

ولست أطيل في ذكر ما أوصى الإسلام بالمرأة ، فما قدمت من الآيات البليغة والأحاديث ، فيه الكفاية . وإعنا أريد أن أُنْبه إلى الافتنان الذي افتتنه الرسول عليه الصلاة والسلام في انتزاع ما بقي في نفوس العرب من كره البنات ، وكيف غرس مكانه العطف عليهن والعناية بهن . لقد كانت سيرته مع أزواجه وبناته وأولاد بناته عجباً من العجب ، رأى فيها الأصحاب ما أفاض عليهم الرحمة والحنان لهن ، فمشقوا منه هذا المثال وجروا عليه :

١- قبل رسول الله مرة ابن بنته الحسن بن علي ، وعنده الأقرع ابن حابس أحد أشراف البادية ، فلم يعجب الأقرع ما رأى ، ولعله عاب هذه الرحمة التي فاض بها قلب النبي حين قال : « إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً » فنظر إليه رسول الله ثم قال : « من لا يرحم لا يرحم » ، « أو أملك إن كان الله نزع منكم الرحمة ^(١) ؟ » وهكذا آذن النبي قسوة الجاهلية حرباً لاهوادة فيها إلا أن تُنزع انتزاعاً وتحل محلها الرحمة الخالصة .

٢- وأمره من عائشة رضي الله عنها كالشمس شهرة ، وكان أصحابه يعاينون عطفه عليها وهي بنت تسع وتأمل هذا المشهد الحنون المؤثر الذي تقصه السيدة نفسها على الرجال فيما بعد ليقصدوا بهدي الرسول في الرفق بالإناث ، قالت :

(١) تيسير الوصول ١١٣/٢ وقد سبق مثل هذا الحديث ص ٢٩ .

« والله لقد رأيت رسول الله ﷺ يقوم على باب حجرتي والحبشة يلعبون بالحراب ، ورسول الله يسترني بردائه لأنظر إلى لعبهم من بين أذنه وعاتقه ، ثم يقوم من أجلي حتى أكون أنا التي أنصرف ، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو . » ^(١)

٣ - حدثت أيضاً تقول : « دخلت عليّ امرأة ومعها ابنتان لها تسأل ، فلم تجد عندي شيئاً غير تمرّة واحدة ، فأعطيتها إياها فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها ، ثم قامت فخرجت ، فدخل النبي ﷺ علينا فأخبرته فقال :

« من ابتلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كنّ له ستراً من النار . » ^(٢)

هذا عمله فأما أقواله التي لمست قلوب أغلظ الناس أكباداً ففجّرت منها ينابيع رحمة وحنان فهذه أمثلتها :

١ - « من كان له ثلاث بنات فصبر عليهن كنّ له حجاباً من النار من جوامع كله في ذلك يوم القيامة » ^(٣)

(١) مسند أحمد ١٦٦/٦ والجزء الذي حققناه وأصدرناه منذ أيام من (سير

النبل) للذهبي مخصوصاً بترجمة السيدة عائشة ص ٣١ .

(٢) رياض الصالحين ص ١٢٩ عن البخاري ومسلم .

(٣) البخاري في الأدب المفرد ص ١٣ .

٢ - من عال ثلاث بنات أو ثلاث أخوات أو أختين أو بنتين فأدبهن وأحسن إليهن وزوجهن فله الجنة . « (١)

٣ - من كان له ابنة فأدبها فأحسن تأديبها وغذاها فأحسن غذاها وأسبغ عليها من النعمة التي أسبغ الله عليه كانت له ميمنة وميسرة من النار إلى الجنة . « (٢)

٤ - من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين (وضم أصابعه) « (٣)

٥ - ساووا بين أولادكم في العطية ، فلو كنت مفضلاً أحداً لفضلت النساء « (٤)

٦ - « اللهم إني أخرج حق الضعيفين : اليتيم والمرأة . » (٥)

(١) تيسير الوصول ١ / ٤٩ وقال : أخرجه أبو داود والترمذي .

(٢) الخرائطي في مكارم الأخلاق ص ٧٠ - والحديث ضعيف من حيث السند ، إلا أن متنه يتسق هو وبقية الأحاديث الصحاح .

(٣) رياض الصالحين ص ١٢٩ عن مسلم .

(٤) الجامع الصغير نقلاً عن الطبراني والخطيب وهذا الحديث كسابقه (٣) من حيث

الدرجة وهو مروي عن ابن مسعود .

(٥) رياض الصالحين ص ١٣٠ عن أبي داود بإسناد جيد .

٧ - « من كانت له أنثى فلم يثدها ولم يهنها ولم يؤثر ولده عليها ،
أدخله الله تعالى الجنة (١) » .

فانظر حسرة الرسول على ما كان يفعل بالبنات ، وما فاض به قلبه
من رحمة عليهن في أوجز لفظ وأبلغه أثراً في النفوس .

آخر وصايا
الرسول

ولقد كانت حياته كلها مدرسة يتعلم فيها الأصحاب حسن رعاية
النساء والقيام بحقوقهن ... حتى إذا كان العام الأخير من عمره ،
وكانت حجة الوداع ، واجتمع في الموسم من العرب ما لم يجتمع مثله
قبل ذلك قط ، وألقى الرسول ﷺ خطبة الوداع التي أوصى فيها
المسلمين وهي آخر ما عهدته الناس من خطبه في الحج ... ، كان الرفق
بالنساء والوصاية بهن من أول ما قرأ في أسمع قبائل العرب ، حتى إذا
نزغ بهم فيما بعد ، نزغ من جاهلية فأرادوا أن يقسوا على هذا المخلوق
الضعيف .. ذكروا أنه وصية رسول الله وعهده إليهم ، وقرع أسماعهم
بجملة البليغة التي برزت في خطبة الوداع ، وهي قوله :
« ... ألا فاستوصوا بالنساء خيراً (٢) » .

أثر تعاليمه في
تفريج النساء
الجليلات

هذا ما أردت الإلماع إليه من حال المرأة في الجاهلية والحال التي
سمت إليها في الاسلام ، شرحته ليكون بأيدينا مصباحاً نرد به المحجة

(١) تيسير الوصول ١ / ٤٩ .

(٢) رياض الصالحين ص ١٣٢ وقال أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن

صحيح - وسيرة ابن هشام ٣ / ٤١٦ (الطبعة القديمة) .

في نهضتنا الاجتماعية ، على نور وبصيرة . وأظنك بعد هذا لا تستكثر على من دانوا بهذا الدين ، وتخرجوا بتلك التعاليم ، أن يكون لهم ذلك العدد الدثر من النساء الجليلات ، اللواتي فحن كثير أ من فحول الأمم في التربية والإصلاح والبطولة والعلم والأدب والدين وتخرج الرجال . نعم ، ليس من الكثير أن يكون لنا تاريخ نفم بثبت حافل من أعلام النساء : أمثال أمهات المؤمنين والصحائيات ومن وليهن في ميادين العلم والتربية والأدب والشعر . . وحتى الجهاد والإدارة والسياسة وإن مما تعجز عنه العصبية أولو القوة ، استقصاء المريات والأديبات والشاعرات والمحاربات والطيبات ... اللأئي طفح بهن تاريخ العرب ، ذلك شيء يستعصي على الحصر . ولو ذهب باحث يسلسل تلك الحلقات التي احتلت أولاها عائشة وأسماء وفاطمة وخولة وغزالة والخنساء ... ومن تتابع منهن من لدن عصر الرسول إلى يوم الناس هذا ، ما كفاه عمره وإن طال .

الباب الثاني

أمهات المؤمنين

« النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم .. »
 « يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنن تردن الحياة الدنيا
 وزينتها فتعالين أمتعن وأسرن حكن سراهاً جيلاً . وإن
 كنن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للحسنات
 منكن أجراً عظيماً .

يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب
 ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً .
 ومن يفت منكن الله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها
 مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً .

يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقين فلا تخضعن
 بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً
 وقرن في بيوتكن ولا تبرزن تبرج الجاهلية الأولى وأقن
 الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم
 الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً .
 واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله
 كان لطيفاً خبيراً . »

سورة الاحزاب : الآيات ٦ ، ٢٨ - ٣٤

هذا هو القول الكريم ، الذي تردده محارب المسلمين منذ أربعة
 عشر قرناً وستظل تردده إلى قيام الساعة ، يسمعه المؤمن فيمتلئ صدره

إعظاماً وإجلالاً : لمن شارك في ضرائه وسرائه ، وصبرن معه على شظف العيش وكَلَب الزمان ، وتحملن معه صروف الأذى وخففن عنه ما يجد من آلام في سبيل الدعوة إلى الله .

ظلت بيوتهن مهابط الوحي والرحمة والهدى مدة حياته عليه الصلاة والسلام ، فلما انتقل إلى جوار ربه ، بقيت هذه البيوت مثابة للناس يقصدونها متعلمين مستفتين ، أو ملتجئين مستغيثين ، فكانت تهدي الحائر ، وتعلم الجاهل ، وتحمي الملتجئ ، وتنجد المستغيث ، ولبت الناس جميعاً على اختلاف طبقاتهم : الخلفاء فمن دونهم يخضعون لأزواج الرسول خضوع الأبرار لأمهاتهم .

لقد رفعهن الله إلى مقام تندق دونه الرقاب وأحاطهن برعاية وتقديس أذعن لهما كل مسلم ، فكانت بذلك طبقة متميزة لا يفضلها أحد إلا الأنبياء . وكان من رحمة الله بهذه الأمة : أن طال عمرهن بعده ، فنقلن لأمته كثيراً من سنة النبي وخاصة فيما لا يطلع عليه إلا النساء ، فعن طريقهن عرف المسلمون أحواله المنزلية ، وعنهن رووا كثيراً من السنة التي لولاهن لضاعت ، وكانت بيوتهن بمنزلة مدارس مفتحة الأبواب يتعلم فيها النساء والرجال دينهم على السواء .

الفصل الأول

في أزواجه وسبب تعددهن

لبث رسول الله طول مقامه بمكة ولم يتزوج إلا السيدة خديجة ، فلما هاجر إلى المدينة واتسع عمله ونشأت العلائق المدنية بينه وبين القبائل ، استدعى ذلك أن يصهر إلى عدد منها ، فكان جملة من دخل بهن إحدى عشرة ، اثنتان منهن توفيتا في حياته وهما خديجة وزينب بنت خزيمة أم المساكين ، والتسع البواقي توفي عنهن ، وهذه أسماؤهن مرتبة على حسب دخوله بهن :

١ - خديجة بنت خويلد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب : أشرف

سيدات مكة وأثراهن . تزوجها قبل رسول الله رجلان أما الأول فهو عتيق بن عابد المخزومي فولدت له حارثة ، ثم مات عنها فتزوجها أبو هالة مالك بن النباش فولدت له ولداً وبنتاً ثم مات عنها .

وكانت خديجة امرأة تاجرة ذات ثروة وشرف تستأجر الرجال

في تجارتها وتضاربهم عليها ، فلما عرفت رسول الله وما اشتهر به من أمانة وعفة ، استأجرته في تجارة لها الى الشام مع غلامها ميسرة ، فحمدت خديجة خصاله ورغبت في نكاحه ، ولما خطبها رسول الله كان عمره خمساً وعشرين سنة وعمرها هي أربعون سنة . وبقيت عنده حتى ماتت ولم يتزوج عليها ، وجميع أولاده عليه السلام منها وهم ثمانية : القاسم والطيب والطاهر وعبد الله وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ^(١) ، إلا إبراهيم فمن السيدة ماريه القبطية .

خدمتها للاسلام
فمن نشأته

ولقد قامت في عون رسول الله لما بعثه الله ، مقاماً محموداً كان له خير الأثر في التخفيف عن رسول الله ، يجد في كنفها المواساة والمودة والعطف ، وتبعث فيه القوة على الدعوة الى الله ، فاذا ضاق صدره عليه السلام من تكذيب قريش له وايدائهم وعدوانهم رجع الى بيته حيث يجد من خديجة خير عزاء عما لقي . ولقد ماتت خديجة وهاجر رسول الله إلى مكة وصار له تسع نسوة ، ولم ينس خديجة وفضلها قط ، ولم يك يشبع من ذكر لها وثناء عليها ، وليس يحفظ التاريخ مثلاً أعلى ولا أنبل في وفاء الأزواج لأزواجهن من هذا المثل الذي ضربه رسول الله من نفسه للناس :

وفاء الرسول لها
بدموتها

غيرة عائشة من
كثرة ثنائه عليها

قالت عائشة : « ما غررت على أحد من نساء النبي ما غرت على خديجة ، وما رأيتها ولكن كان رسول الله يكثر ذكرها ، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاءً ثم يبعثها في صديق خديجة . وربما قلت له : « كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة » فيقول : « إنها كانت وكانت وكان لي منها ولد » ^(١) .

إكرامه صواحبها
بعدموتها

هذه رواية السيدة عائشة أجمل أزواجه وأحبهن إلى قلبه ، غارت من امرأة ميتة من كثرة ما عاينت من عناية النبي بها ووفائه لها وحسن ذكراها عنده . ولقد كانت تأتيه المعجوز فيقوم لها ويسط لها رداءه ، فاذا استغرب ذلك منه قال : « إنها كانت تأتينا أيام خديجة » وظاهر أن تعلق قلبه ﷺ بذكرى هذه السيدة لم يكن لغرام بجماها قط ، لقد أبدله الله أجمل منها وما كانت نفسه الكبيرة ﷺ لتشبه نفوسنا ، ولكنه يثي على أمور هي أبعد من ذلك : على نبليها ودينها ومواساتها ، ولقد كان لها في نفسه إجلال لا يوصف لما لها من حسن الأثر عليه أيام الشدة وعنفوانها . وإليك هذا الشاهد مروياً أيضاً عن السيدة وفيه يبين الرسول سبب تعلقه بها ووفائه لها خير بيان :

(١) السمط الثمين ص ١٦ نقلاً عن البخاري ومسلم

قالت عائشة : « كان رسول الله إذا ذكر خديجة أثنى وأحسن الثناء عليها، فغرت يوماً وقلت : « ما أكثر ما نذكركها ، حمراء الشدقين، قد أبدلك الله خيراً منها » فقال : « ما أبدلني الله خيراً منها : قد آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدقني إذ كذبني الناس ، وواستني بجاهها إذ حرمني الناس ، ورزقني أولادها إذ حرمني أولاد النساء » (١) .

وعلى أنها كانت تكبره خمس عشرة سنة وكان هو في فورة الشباب واكتمال الرجولة لم يتزوج إلا بعد موتها . وكانت وفاتها قبل الهجرة بثلاث سنين .

٢ - سورة بنت زمة : من بني عامر بن لؤي من قريش : وكانت

قبل النبي ﷺ تحت السكران بن عمرو، وكان هذا من مهاجرة الحبشة فتنصر ومات بها . فكافأها الله على صدق إيمانها وتحملها الهجرة في سبيل عقيدتها، وجبر قلبها بما أصابها من تنصر زوجها فأمر نبيه فتزوجها ﷺ وبني بها قبل عائشة (٢) وتوفيت بالمدينة آخر خلافة عمر . وقيل عمرت حتى خلافة معاوية سنة ٥٣ للهجرة .

٣ - عائشة بنت أبي بكر الصديق : من تيم بن مرة بن كعب

من قريش ، ولم يتزوج رسول الله بكراً غيرها . وبني بها في السنة الثانية

(١) السمط الثمين ص ٢٥ عن البخاري ومسلم وانظر مسند أحمد ٦ : ١٥٠

(٢) تاريخ الطبري ٢ : ٤١١ مطبعة الاستقامة

بعد الهجرة فكان هذا الزواج خير مكافأة وتقدير وشكران لآيها الذي بذل في سبيل الإسلام من ماله ودمه وأهله ما لم يبذل أحد، وتحمل من الأذى والاضطهاد والعدوان ما لم يحمل أحد حاشا رسول الله ﷺ وتوفيت عائشة سنة ثمان وخمسين^(١).

٤ — حفصة بنت عمر بن الخطاب من بني عدي بن كعب بن لؤي من قريش. كانت قبله تحت خنيس بن حذافة السهمي أحد أصحاب رسول الله ﷺ البدرين، وقد توفي بالمدينة ولم يخلف ولداً منها. ولعل الله أراد بزواج رسوله من حفصة نحواً مما كان في زواجه من ابنة أبي بكر: فقد كان إسلام أبيها عمر عزاً للدعوة وقوة لها. توفيت سنة خمس وأربعين بالمدينة ولها ستون سنة.

٥ — أم سلمة هند بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية القرينية: تجتمع مع النبي في مرة بن كعب بن لؤي. كانت تحت ابن عمها أبي سلمة ابن عبد الأسد بن هلال أحد أصحاب رسول الله ﷺ وكان شجاعاً فارساً أصابته جراحة في غزوة أحد فمات منها « وكان ابن عمه رسول الله ﷺ ورضيعه^(٢) » وله من أم سلمة أربعة أولاد: عمر وسلمة وزينب

(١) نشرنا في الشر المنصرم سيرتها مفصلة للحافظ الذهبي وهي من أوفى السير عنها، عن نسخة فريدة في العالم بخزانة صاحب الجلالة إمام اليمن واسمها: (سير النبلاء ٢ جزء مخصوص بترجمة السيدة عائشة) مطبعة الترقى بدمشق.

(٢) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٤١٤.

ودرة ؛ فلم يضيع الله جهاد الزوجين معاً فجعل رسوله هو الخلف عليها وعلى أولادهما من المجاهد الشهيد . ولما صلى رسول الله على أبي سلمة ، كبر تسع تكبيرات ف قيل « يارسول الله أسهوت أم نسيت » فقال : « لم أسه ولم أنس » ، ولو كبرت على أبي سلمة ألفاً كان أهلاً لذلك » ثم زوج رسول الله ابنهما سلمة من ابنة حمزة بن عبد المطلب عمه عليه الصلاة والسلام ^(١) ودفنت أم سلمة بالقيع سنة ستين ولها أربع وثمانون سنة .

٦ - زینب بنت خزیمہ أم المصائب (وهذه كنيتهما في الجاهلية) ، كانت تحت عبد الله بن جحش فقتل عنها في غزوة أحد ، فتزوجها النبي ﷺ سنة ثلاث ، وبقيت عنده شهرين او ثلاثة ثم توفيت بالمدينة ولم يمض عنه من أزواجه غيرها وغير خديجة .

٧ - جويرية بنت الحارث الخزاعية : كانت تحت مسافع بن صفوان ولم تلد له شيئاً ، فلما كانت غزوة بني المصطلق أصيبت سبيةً في سهم ثابت بن قيس الأنصاري فكلم النبي ﷺ في فداها ، فخطبها رسول الله بعد أن أعتقها وأصدقها أربعمئة درهم ؛ وكان ذلك سنة خمس من الهجرة . فلما رأى أصحاب رسول الله ذلك ، أعتقوا من بأيديهم من الأسرى وقالوا : « أصهار رسول الله » فكانت من أعظم النساء بركة

على قومها ، أعتق بسببها مئة أهل بيت ^(١) وتوفيت سنة خمسين .

٨ - أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب الأموية القرشية : كانت

عند عبيد الله بن جحش ، وكانا مهاجرين في الحبشة الهجرة الثانية ، فتنصر زوجها بالحبشة ومات بها . ثم أرسل رسول الله ﷺ يخطبها سنة ست ^(٢) فرجعت مع شرحبيل بن حسنة إلى المدينة ، وكانت شديدة المحبة والاتباع لرسول الله ﷺ . وسر لهذا الزواج أبوها أبو سفيان وكان يومئذ على شركه بمكة ، ولعل ذلك أقوى ما طامن من عداائه للدعوة هو وأسرته وسائر بني أمية ، فلانت قلوبهم للإسلام بعض اللين ، فكان ذلك نواة وتمهيداً لإسلامهم فيما بعد . وتوفيت بالمدينة سنة أربع وأربعين .

٩ - زينب بنت جهمس : كانت عند زيد بن حارثة ربيب النبي

ﷺ فطلقها ، وأراد الله أن يهدم عادة التبني الجاهلية فأمر نبيه بالتزوج من زينب بقوله : « وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطراً زوجنا بها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً » ^(٣)

(١) السمط الثمين ص ١١٦ و ١١٧ وتاريخ الطبري .

(٢) شرح الزرقاني على المواهب ٣ : ٢٤٢ .

(٣) سورة الاحزاب الآية ٣٧ .

فكانت زينب تفخر على سائر أزواج النبي بقولها : « زوّجكن
 أبائكن وزوجني الله من فوق سبع سماوات » ^(١)

وبهذا الزواج بطل أن يلحق المرء ريبه بنسبه . وكانوا يدعون
 ابن حارثة هذا : زيد بن محمد ، فلما نزل قول الله : « ما كان محمدُ أباً
 أحدٍ من رجالكم ولكن رسولَ الله وخاتم النبيين » وقوله « ادعوهمْ
 لآبائهم هو أقسطُ عند الله » صاروا يدعونه زيد بن حارثة .

توفيت زينب سنة عشرين في خلافة عمر ولها ثلاث وخمسون سنة .

١٠ - صفية بنت مبي بن أخطب من اليهود : كانت تحت سلام

ابن مشكم ، فلما فرغ المسلمون من غزوة خيبر ، وقعت في السبي وقد
 قتل أبوها وأخوها وزوجها ، وهي سيدة قريظة فأسلمت ، فأراد
 رسول الله أن ينقذ شرفها من الأسر وأن يكرم عزها وإسلامها ، ويجبر
 قلبها بعد فقدتها زوجها وولدها وأخاها ، فأعتقها وتزوجها وكان ذلك
 سنة ست من الهجرة . وبقيت حتى سنة خمسين في خلافة معاوية
 ودفنت بالبقيع .

١١ - ميمونة بنت الحارث الهذلية : خطبها رسول الله مقدّمه

مكة معتمراً سنة سبع وبنى بها بسرّاف قبل رجوعه إلى المدينة ، فلما

(١) السمط الثمين ص ١٠٦ نقلاً عن الترمذي . وذكر الزرقاني في شرح

المواهب ٣ : ٢٤٧ أن ذلك كان سنة ست للهجرة .

جاءتها خطبة رسول الله وكانت على بعير قالت : « البعير وما عليه
الله ورسوله » .

توفيت بسرف في الموضع الذي بنى بها فيه رسول الله وذلك سنة
إحدى وخمسين ^(١) في خلافة معاوية

١٢ — مارية القبطية : أهداها له المقوقس صاحب مصر في جملة
هدايا ، فأسلمت ، ودخل بها رسول الله ﷺ وولدت له إبراهيم ،
فأعتقت ، وبقيت حتى خلافة عمر ، فماتت سنة ست عشرة
ودفنت بالبقيع .

فجملة من دخل بهن الرسول إحدى عشرة امرأة ^(٢) عدا السيدة
مارية القبطية : ست قرشيات وهن خديجة وسودة وعائشة وحفصة
وأم سلمة وأم حبيبة ، وأربع من سائر قبائل العرب وهن : زينب
بنت جحش الأسدية وميمونة بنت الحارث الهلالية وجويرية الخزاعية

(١) السمط الثمين ص ١١٥ .

(٢) ممن عقد عليهن ودخل بهن بلا خلاف . وهناك عدد من النسوة لم يدخل بهن
ﷺ : بعضهن مات قبل وصولها إليه ، وبعضهن لم تتم خطبتهن ، وبعضهن طلقها
قبل دخوله بها ، وفي أسماهن وعددهن خلاف . ومن أراد الوقوف عليه
فليرجع إلى (السمط الثمين ص ١٢٣ - ١٣٩ وإلى شرح المواهب للزرقاني
ج ٣ ص ٢٦٠ - ٢٧١) .

وصفية الاسرائيلية ، ثم السيدة مارية القبطية ^(١)

سر هذا العدد
وقائده للدعوة

هذا وقد كان إصهاره ﷺ إلى قریش وقبائل العرب وبني إسرائيل ذا أثر كبير في تأليف القلوب على الاسلام ، أفادت منه الدعوة اكبر الفوائد في جمع الكلمة وتقريب أمد الوحدة إذ ذاك :

لقد كان انتشار الإسلام ومهوض الرسول بتأسيس الوحدة العربية داعيين قوين في تكثير بيوت النبي ﷺ ، فقد كثرت ضيفانه ، وتعددت أسباب إصهاره إلى القبائل ، ولم يكن في هذا الإصهار شيء من المتعة النفسية له ، بل لقد كان الأمر على العكس ، وكان تعدد الإصهار لختلف القبائل عبثاً تطلبت من الرسول رجولة معجزة وصدرأ رحباً واتساع نفس ، فأعان الله رسوله على تحمل هذه الأعباء . وكان من ذلك أن تمت الوحدة ، وتآلفت القلوب ، وتغلب النبي على نفرة القبائل بهذا الإصهار ، وضمن من بعده لأئمة مدارس لنشر العلم والسنة

(١) من أراد زيادة اطلاع على سير أمهات المؤمنين فليرجع إلى كتاب (السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين) للمحب الطبري فقد وفي الموضوع حقه . وليس من منهج هذا الكتاب الافاضة بمناقبين وأخبارهن فهي مبذولة في كتب السير والطبقات ، وإنما غرضنا هنا إظهار منزلتهن ووضعهن الاجتماعي والحقوق . هذا وفي ترتيبهن خلاف ، وقد أثبتنا أصح الروايات معتمدين على ما ذكره للزرقاني في (شرح المواهب) على سني زواجهن .

يتعلم بها العرب الذين أعدم الله لإنقاذ الإنسانية كيف يعاملون النساء
ويتسمون بذلك سيرته معهن ﷺ . ولو كان هناك شيء من المتعة
لنفسه ، أو كان له شيء من الاختيار في هذا الإصهار ، لما حرم الله عليه
ما أباح لكل أمته : حرم عليه أن يطلق أحداً منهن ، أو يتزوج زيادة
عليهن ، مع العلم أن كلاً من أمته يستطيع أن يستبدل بزوجه من
تمجبه . هذا ولا ننسى أنهم كلهم — إلا عائشة — نبيات ، كن قبله
تحت أزواج ماتوا عنهن .

الفصل الثاني

في التشريع الخاص بأمهات المؤمنين

نزل الوحي مثبتاً لنساء النبي حقوقاً وأحكاماً وآداباً أخذ بها الناس ، فكن بذلك سبباً في نزول تشريع خاص بهن في مناسبات مختلفة . وبقي هذا الوحي يتلى بعد مماتهن جميعاً إلى قيام الساعة : إيداناً بمكانة المرأة في الاسلام ، وتشريفاً للنساء عامة ، إذ لم يكتف الاسلام بأن جعل للمرأة شخصية (حقوقية) مستقلة كالرجل ، بل زاد بأن رفع المختارات منهن إلى درجة من التقديس : دون الانبياء وفوق الاصحاب .

وإليك أمهات المسائل اللائي كانت مناط تشريع بحقهن :

أ — صيانة مقامهن وحرمة الابتذال وحرمة نظارهن بعده : كان كثير

من العرب غافلاً عن التزام الادب اللائق ببيوت الرسول ، فكانوا يجلسون عنده في كل وقت ، وربما أطالوا فيتأذى الرسول ويستحيي أن يصرفهم ، وقد وقعت في ذلك حوادث نحن ذا كروها لك :

١ - لما تزوج رسول الله زينب بنت جحش أولم بخبز ولحم وأرسل أنساً يدعو الناس ، فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون ، ثم قوم فيأكلون ويخرجون ، فدعا أنس حتى ما يجد أحداً فقال : « يا بني الله لم أجد أحداً أدعوه » قال : « ارفعوا طعامكم » ثم جلس المدعوون يتحدثون ، فأخذ الرسول كأنه يتهيأ للقيام ، فلم يقوموا ، فلما رأى ذلك قام وقام من القوم من قام ، وقعد ثلاثة ثم انطلقوا ، فجاء أنس فأخبر النبي أنهم انطلقوا ، فجاء حتى دخل ، وذهب أنس يدخل فآلتي دونه الحجاب » ^(١)

٢ - قالت عائشة : « كنت آكل مع النبي ﷺ في قعب ، فرعرع ، فدعاه ، فأكل ، فأصابت إصبعه إصبعي فقال : « أوه لو أطاع فيكن ما رأته عين » فنزلت آية الحجاب » ^(١)

٣ - روى ابن عباس : دخل رجل على النبي ﷺ فأطال الجلوس ، فخرج النبي ثلاث مررات ليخرج فلم يفعل ، فدخل عمر فرأى الكراهية في وجهه فقال للرجل : « لعلك آذيت النبي » فقال النبي ﷺ : « لقد قت ثلاثاً لكي يتبعني فلم يفعل » فقال له عمر : « يا رسول الله لو اتخذت

(١) لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ، وانظر : السمط الثمين ص ١٠٨

وتاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ١٦ ، ١٧ وقد أثبت زيادة عن شرح

المواهب للزرقاني ٢٤٦/٣

حجاباً ، فان نساءك لسن كسائر النساء وذلك أطهر لقلوبهن فنزلت آية الحجاب «^(١)»

٤ — قال محمد بن كعب : كان رسول الله ﷺ إذا نهض إلى بيته بادروه فأخذوا المجالس ، فلا يعرف ذلك في وجه رسول الله ولا يبسط يده إلى الطعام استحياء منهم فعوتبوا في ذلك «^(١)»

هذه روايات مختلفة في سبب نزول آية الحجاب ولعلها كلها وقعت ووقع أيضاً حادث أكثر خطراً وإيذاء :

٥ — روى ابن عباس : أن رجلاً أتى بعض أزواج النبي ﷺ فكلما وهو ابن عمها ، فقال النبي له : « لا تقومن هذا المقام من بعد يومك هذا » فقال : « يا رسول الله إنها ابنة عمي ، والله ما قلت منكراً ولا قالت لي » قال النبي ﷺ : « قد عرفت ذلك ، إنه ليس أحد أغير من الله ، وإنه ليس أحد أغير مني » فضى الرجل ثم قال : « يمنعني من كلام ابنة عمي ، لأتزوجنها من بعده » «^(٢)» فأنزل الله الآية الآتية بعد ، وأعتق ذلك الرجل رقبةً وحمل على عشرة أبعة في سبيل الله وحج

(١) انظر المصادر السابقة .

(٢) لباب النقول

ماشياً ، توبةً من كلمته .

وهناك روايات أقصر من هذه إلا أنها سمت الرجل وهو طلحة بن عبيد الله أحد العشرة المبشرين في الجنة ، وسمت أم المؤمنين عائشة ^(١) أنزل الله على النبي في هذا الحادث والحوادث قبله هذه الآية الجامعة :
 « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ » ^(٢) ولكن إذا دُعِيتُمْ فادخلوا ، فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديثٍ ، إِنْ ذُلِّمَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ، وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ، وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا زَوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنْ ذُلِّمَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا » ^(٣)

ثم ذكر الذين يجوز للنساء النبي مقابلتهم من غير حجاب فقال :
 « لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ

(١) لباب النقول

(٢) ناظرين إناه : منتظرين نضجه

(٣) سورة الأحزاب الآية : ٥٣

إخوانهنَّ ولا أبناء أخواتهن ولا نسائنَّ ولا ما ملكت أيمانهنَّ
واتقين اللهَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً^(١) .

ب - مهاجرين خارج البيوت : خرجت أم المؤمنين سودة بنت
زمنة بعد ما ضرب الحجاب لحاجتها ، وكانت امرأة جسيمة لا تحفى على
من يعرفها ، فرآها عمر فقال : « ياسودة أما والله ما تخفين علينا ،
فانظري كيف تخرجين » فانكفأت راجعة ورسول الله في بيت عائشة ،
وإنه ليتعشى وفي يده عِرْقٌ ، فدخلت وقالت : « يا رسول الله إني
خرجت لبعض حاجتي فقال لي عمر كذا وكذا » فأوحى الله إليه
الآية التالية . ثم رفع عنه الوحي وإن العرق في يده ما وضعه ، فقال :
« إنه قد أذن لكن أن تخرجن لحاجتك . »^(٢)

كان نساء النبي ﷺ يخرجن بالليل لحاجتهن وكان ناس من
المنافقين يتعرضون لهن ظناً منهم أنهن إماء ؛ فيؤذنين ، فشكون ذلك ،
فقيل للمنافقين ، فقالوا « إنما نفعله بالإماء » فأنزل الله هذه الآية :
« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ

(١) سورة الأحزاب الآية ٥٥

(٢) لباب النقول . وقال : أخرجه البخاري عن عائشة .

جلايبيهن ، ذلك أذنى أن يُعرَفن فلا يؤذِنَ وكان الله غفوراً
رحيماً» (١)

١ — عادت النفير واختصاصهن دون سائر الصمات بمضاعفة الأجر

طلب نساء الرسول ﷺ منه النفقة ، ولعلمهن أردن عيشاً أطرى
من عيشهن ، فحزن رسول الله ﷺ واعتزلهن شهراً ، فأُنزل الله على نبيه
يأمره أن يخبرهن بين الطلاق والعيش معه على حاله تلك ، وهذه
رواية السيوطي عن مسلم وأحمد والنسائي : « أقبل أبو بكر يستأذن
على رسول الله ﷺ فلم يؤذن له ، ثم أقبل عمر فاستأذن فلم يؤذن له
ثم أذن لهما فدخلوا والنبي ﷺ جالس وحوله نساؤه وهو ساكت ،
فقال عمر « لا تكن النبي ﷺ لعله يضحك » فقال عمر : « يا رسول
الله لو رأيت ابنة زيد (امرأة عمر) سألتني النفقة آنفاً فوجأت عنقها ! »
فضحك النبي ﷺ حتى بدا ناجذته وقال : « هنّ حوّلي يسألني النفقة »
فقام أبو بكر إلى ابنته عائشة ليضربها ، وقام عمر إلى حفصة ، كلاهما
يقول : « تسألان النبي ﷺ ما ليس عنده ؟ ! » وأنزل الله الخيار ،

تغير الرسول
أزواجه

(١) سورة الأحزاب الآية ٥٩ الجلباب : الملاعة . والإدناء : الارضاء على الوجه .

فكان النساء يحتجن ولا يظهرن إلا عينا واحدة يرين بها الطريق لصيانة لمقامهن
عن الابتذال .

قَبْدًا النَّبِيُّ بِعَائِشَةَ فَقَالَ : « إِنِّي ذَا كَرِّكَ أَمْرًا مَأْخُوبًا أَنْ تَعْجَلِي فِيهِ
حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبُوَيْكَ » قَالَتْ « مَا هُوَ ؟ » قَتَلَا عَلَيْهَا :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ : إِنْ كُنْتُمْ تَرُدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
وَزِينَتَهَا فَعَالَيْنَ أُمْتَعْنَكُمْ وَأَسْرَحَكُمْ سَرَاحًا جَمِيلًا . وَإِنْ كُنْتُمْ
تُرَدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمَحْسَنَاتِ مِنْكُمْ
أَجْرًا عَظِيمًا ^(١) . »

اختيار من الله
ورسوله

قَالَتْ عَائِشَةُ : « أَفِيكَ أَسْتَأْمِرُ أَبُوِي ؟ ! بَلْ أَخْتَارَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ » ^(٢)
وَكَانَ جَوَابُ صَوَاحِبِهَا مِثْلَ جَوَابِهَا : كُلُّهُنَّ اخْتَارَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ
الْآخِرَةَ . فَرَفَعَ اللَّهُ مَقَامَهُنَّ وَجَعَلَ لَهُنَّ عَلَى الْحَسَنَةِ ضِعْفَ أَجْرِ غَيْرِهِنَّ
مِنَ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ ، وَكَذَلِكَ ضَاعَفَ لَهُنَّ الْعَذَابَ إِذَا أَخْطَأْنَ ! ،
وَذَكَرَهُنَّ بَعَلُو دَرَجَتَهُنَّ وَمَا يَلِيقُ بِهِنَّ مِنْ لُزُومِ الْبُيُوتِ وَتَقْوَى اللَّهِ
وَمِنْ عَلَيْهِنَّ إِذْ جَعَلَ بُيُوتَهُنَّ مَهَابُطَ الْوَحْيِ وَالرَّحْمَةِ فَقَالَ :

مضاعفة أجرهن

« يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُمْ بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ يَضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ
ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا . وَمَنْ يَقْتَنِ مِنْكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ
وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا . يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ
لَسْتُمْ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُمْ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي

(١) سورة الأحزاب ، الآيتان ٢٨ و ٢٩

(٢) لباب النقول في أسباب النزول .

قلبه مرض وقُلنَ قولاً معروفاً . وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَ كُمْ تَطْهِيراً ،
 وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ^(١)

د - تحريم الله على نبيه طهراً أو الزيادة عليهن :

بعد أن هجر النبي نساءه - على ما تقدم - ثم أمره الله أن يخيرهن ، فخيرهن فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة ؛ بعد ذلك حرم الله على رسوله أن يطلق منهن أحداً أو يتزوج عليهن ، وهذا حكم خاص به ﷺ لأنه لم يكن في دواعي زواجه شيء من حظ المتعة النفسية ، فاذا كان لأي رجل من أمته أن يطلق زوجته ويتزوج بأجل منها في أي ساعة شاء ، فإن الله قد اصطفى لرسوله هؤلاء التسع لينقلن إلى أمته من بعده سيرته وسنته وهديه ، وشرفهن على النساء بأن جعل زواجهن من اختيار الله ؛ ولما اخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، حرم الله على نبيه الزيادة عليهن أو تطليق أحد منهن ونزل في ذلك :

(١) سورة الأحزاب الآيات : ٣٠ - ٣٤

الاسلام والمرأة (٦)

« لا يحلُّ لك النساء من بعد ، ولأنَّ تَبَدُّلَ بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن » ^(١) فلزم أزواجه لقبُ أمهات المؤمنين ، وخلَّد الله بذلك شرفهن إلى الأبد .

هـ - تقرير أمومتهن لعامة المسلمين بنص القرآن :

أنزل الله على نبيه هذا القول الكريم : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم » وأزواجه أمهاتهم ^(٢) فصرن بهذا النص أمهات لكل من كان مؤمناً على الإطلاق . وأصبح الخلفاء من بعده يحترمونهن احترامهم لأمهاتهم ، حتى صار أبو بكر نفسه على جلالة قدره ينادي بنته السيدة عائشة : « يا أمة » . وليس يثبت بهذا النص إلا حكم واحد هو تحريمهن على غير النبي بعد وفاته . وهنا أترك الكلام لأحد كبار الفقهاء المجتهدين يفصل هذا الحكم ، قال الامام ابن تيمية : « قد أجمع المسلمون على تحريم نكاح هؤلاء (يعني أزواج النبي ﷺ) بعد موته على غيره ، وعلى وجوب احترامهن فهن أمهات المؤمنين في الحرمة والتحریم ولسن أمهات المؤمنين في المحرمية : فلا يجوز لغير أقاربهن الخلوة بهن ولا السفر بهن كما يخلو الرجل ويسافر بذوات محارمه ، ولهذا أمرن بالحجاب فقال الله تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك

(١) سورة الأحزاب ٣٣ الآية ٥٢

(٢) سورة الأحزاب ٣٣ الآية ٦

وبناتك ونساء المؤمنين يُدْنِينَ عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يُعرفن فلا يؤذين» ^(١) وقال تعالى « وإذا سألتهم عن متاعاً فاسألوهم من وراء حجاب ، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهم وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً » ^(٢)

أُمّهات في التحريم
دون المحرمة

ولما كنَّ بمنزلة الأمّهات في حكم التحريم دون المحرمة ، تنازع العلماء في إختوتهن : هل يقال لأحدكم : (خال المؤمنين) ؟ ... من علماء السنة من قال لا يطلق على إخوة الأزواج أنهم أحوال المؤمنين ، فانه لو أطلق ذلك لأطلق على إختواتهن أنهن : خالات المؤمنين ، ولو كانوا أحوالاً وخالات لحرم على المؤمن أن يتزوج خالته ، وحرم على المرأة أن تتزوج خالها ، وقد ثبت بالنص والإجماع أنه يجوز للمؤمنين والمؤمنات أن يتزوجوا إختواتهن وإختوتهن كما تزوج العباس أم الفضل أخت ميمونة بنت الحارث (أم المؤمنين) وولد له منها عبد الله والفضل وغيرهما ، وكما تزوج عبد الله بن عمر وعبيد الله ومعاوية وعبد الرحمن بن أبي بكر ومحمد بن أبي بكر من تزوجوهن من المؤمنات ، ولو كانوا أحوالاً لهن لما جاز للمرأة أن تتزوج خالها .

(١) من الكلام على هاتين الآيتين وسبب نزولهما آنفاً ص ٧٧

قالوا : وكذلك لا يطلق على أمهاتهن أنهن جدات المؤمنين ولا على آبائهن أنهم أجداد المؤمنين ، لأنه لم يثبت في حق الأمهات جميع أحكام النسب وإنما يثبت الحرمة والتحرير . وأحكام النسب تتبع كما يثبت بالرضاع التحريم والمحرمية ولا يثبت بها سائر أحكام النسب . وهذا كله متفق عليه » ^(١) اهـ

هذا ولا بأس أن نشير زيادة على ما قال ابن تيمية إلى أنهم اختلفوا هل يقال لإحدهن : أم المؤمنات كما يقال لها أم المؤمنين ؟ فذهب قوم إلى أن المؤمنات داخلات في (المؤمنين) على التغليب ، وذهب آخرون إلى أنهن أم الرجال فقط نظراً لما بينهن وبين الرجال من التحريم ولا شيء من ذلك بينهن وبين النساء ، والنساء لا يدخلن في خطاب الرجال إلا لقرينة . واستدلوا على ذلك بقول السيدة عائشة نفسها : فقد قالت لها امرأة « يا أمة » فقالت : « لست لك بأم إنما أنا أم رجالكم » ^(٢) على أن هناك نقلاً عن أم سلمة تقول فيه : « أنا أم رجالكم ونسائكم . »

وتتابع إجماع المسلمين على حرمتهم وتحريمهن طبقة بعد طبقة ، لم

عظم حرمتهم في نفوس المسلمين

(١) منهاج السنة ١٩٨/٢ وانظر تاريخ دمشق لابن عساكر (مخطوطة دار

الكتب الظاهرية برقم ٣٣٨٠/١٥ الورقة ٣٤٩)

(٢) شرح المواهب ٢١٧/٣ وطبقات ابن سعد ٤٤/٨ ومسند أحمد ١٤٦/٦

وفيه « لست بأمكن ولكني أختكن »

يقتصر ذلك على طائفة دون طائفة^(١) حتى الخوارج أنفسهم وهم الذين

(١) أردت أن أعرف وفاء بحق البحث وتحرياً للحق الخالص ، رأي الشيعة — وهي ثانية الطوائف الاسلامية كثرة وانتشاراً — في أمهات المؤمنين ، ولم أشأ أن أستقل بالبيعة ، فكتبت إلى مفتيهم الأكبر في ديارنا الشامية : الشيخ الجليل السيد محسن الأمين السامي في الخامس عشر من ذي الحجة سنة ١٣٦٣ هـ أسأله أسئلة أولها :

« ماهو رأي الشيعة المتفق عليه : في أمهات المؤمنين عامة ، مستنداً إلى المصادر الموثوق بها ، الجمع على احترامها عندهم . » فوردت أجوبته في كراس مؤرخ في الثالث من المحرم الحرام سنة ١٣٦٣ هـ وهاك منها جواب السؤال المذكور :

قال : « أما الجواب عن الأول فيمكنني في هذه المجالة أن أبين لكم خلاصة عقيدة الشيعة المتفق عليها في نساء الأنبياء عامة ، وفي أمهات المؤمنين نساء النبي ﷺ خاصة :

يمتد الشيعة وجوب تنزيه الأنبياء عن جميع العيوب والنقائص ، سواء أكان ذلك في أفعالهم كالأكل على الطريق ومجالسة الأراذل ، أو صناعاتهم ككونه حائكاً أو حجاماً أو زبالاً ، أو أخلاقهم كالخقد والحسد والجبن والبخل ، أو في أجسامهم كالبرص والجذام ، أو عقولهم كالجنون والبله ، أو في الخارج عنهم كدناءة الآباء وعهر الامهات أو الأزواج .

فنتحصل من ذلك : أن زوجة النبي يجوز ان تكون كافرة كما في امرأتي نوح ولوط عليها السلام ، ولا يجوز ان تكون زانية ، لأن ذلك من النقائص التي تلحق بالنبي فتوجب سقوط محله من القلوب وعدم الاتقياد لأقواله وأفعاله ، وذلك يشافي الغرض المقصود من الرسالة ، وحينئذ فقولته تعالى في حق امرأتي نوح ولوط : « غفائهما » يراد منه الخيانة بغير ذلك ولا عموم في لفظ الخيانة —

كانوا مع علي في حربه عائشة وأصحاب الجمل ، لم يطيقوا أن يسمعوا كلمة نائية وردت في سؤال حتى سدوا آذانهم ، وإليك البيان :

— اما اعتقـ ادم في خصوص أزواج النبي ﷺ فهو ما نطق به القرآن الكريم واتفق على نقله أهل الآثار والخبار دون ما انفرد به بعضهم ولم يقيم برهان على صحته مما روي لأمر سياسي في عصر الملك المعنوي أو انفرد به شذاذ لا عبرة بهم . هذا هو اعتقادهم المتفق عليه ومن نسب إليهم سوى ذلك فقد أخطأ فأزواج النبي ﷺ ، وحرمة نكاحهن من بعده : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم » ، وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً ، وان الزوجية للنبي ﷺ لا ترفع عقاب المعصية بل تضاعفه كما تضاعف ثواب الطاعة « يأنس النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها المذاب ضعفين » ، « ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين » ، « يأنس النبي لستين كآحد من النساء إن اتقيتن » ،

وإن زوجية المرأة للنبي لا تنفصم مع سوء عملها ، كما ان زوجيتها للكافر المدعي الربوبية لا تنصهرها مع حسن عملها : « وضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين . وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله » ، وان بعض أزواجه ﷺ أفشت سره ، وإن اثنتين منها قد صفت قلوبها ومالت عن طريق الطاعة وفعلتا ما يوجب التوبة ، وأنها تظاهرتا عليه : « وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً فلما نبات به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض... »

كان أصحاب النخيلة (وهم طائفة من الخوارج على علي، وهذا الحوار كان بعد صفين) قالوا لابن عباس: «إن كان علي على حق لم يشكك فيه، وحكمهم مضطراً، فما باله حيث ظفر لم يسب؟؟» فقال لهم ابن عباس: «قد سمعتم الجواب في التحكيم، فأما قولكم في السب: أفكنتم سابين أمكم عائشة؟؟!!» فوضعوا أصابعهم في آذانهم وقالوا: أمسك عنا غرب

— ثم قال: «إن تتوبا إلى الله فقد صفت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير. عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيراً منكن.. الآية. وروى الطبري في تفسيره روايات كثيرة والبخاري في صحيحه أن المتظاهرتين كانتا عائشة وحفصة، وأن نساء النبي ﷺ فعلن ما يوجب اعتزاله إياهن تسعة وعشرين يوماً حتى زلت آية التخير: «يأيتها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحن سراحاً جميلاً. وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً.»

ويمتقدون أن أفضل أمهات المؤمنين خديجة بنت خويلد وأن من الحسنات أم سلمة. »

انتهى جوابه على سؤالي الاول. ومع أن السيد لم يذكر في هذا الجواب من المصادر الشيعية الموثوق بها عندهم شيئاً كما رجوت، لا يعني إلا أن أعد هذا الجواب منه — وهو مفتي الشيعة الأكبر في الشام — معبراً عن عقيدة الشيعة الرسمية. وأنت ترى أنها لا تختلف في شيء البتة عن عقيدة أهل السنة.

لسانك يا بن عباس فانه طلق ذلق غواص على موضع الحجة^(١) .

حتى التي غامرت في السياسة ما غامرت ، وأصبح لها خصوم كثيرون من المسلمين ، لم يقر الرأي العام الاسلامي أن يقصر أحد في واجب الحزن عليها بعد وفاتها إذ كانت أمّ لجميع المؤمنين : ذكر ابن سعد في طبقاته أن أحد الأکابر سأل قادمًا : « كيف حزن الناس على عائشة ؟ » فأجابه : « كان فيهم وكان » يعني أن منهم من لم يحزن فقال : « أما إنه لا يحزن عليها إلا من كانت أمه »^(٢) يريد أن يقول : من لم يحزن عليها فليس بمؤمن . وأصرح من هذا جواب ابن الزبير وقد سأله الحرورية (الخوارج) رأيه في أبيه وفي طلحة « وقد بايما علياً ثم نكثا ... وأخرجنا عائشة تقاتل .. » فكان إخراجها عائشة من أشنع ما ففصلا ، في رأي الخوارج : إذ ابتذلا بإخراجها حرمة صانها الله ، فأجاب ابن الزبير : « ومهما ذكرتموها به فقد بدأتم بأمر عائشة ، فان أبي آب أن تكون له أمّا نبذ اسم الايمان عنه ، قال الله عز وجل وقوله الحق : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم »

(١) السكامل للمبرد ٥٧٧/٩ (أروبة)

(٢) طبقات ابن سعد ٥٤/٨

فنظر بعضهم إلى بعض وانصرفوا^(١) . وإن أردت أن تعرف كيف ينظر أجلاء الصحابة الفحول الى أمهات المؤمنين فترو هذا الخبر زيادة على ما تقدم :

صلى ابن عباس الصبح ، فقبل له : ماتت فلانة (لبعض أزواج النبي) ، فسجد ، فقبل له : « أتسجد هذه الساعة ؟ » فقال « أليس قال رسول الله : (إذا رأيتم آية فاسجدوا) ؟ فأى آية أعظم من ذهاب أزواج النبي ﷺ . »^(٢)

(١) الكامل للمبرد ٦٠٨/١٠ (أوروبا)

(٢) السمط الثمين ص ٧ وانظر زاد الماد على هامش شرح المواهب : ١٣٦/١ .

— ١٣٧ وذكر ابن الجوزي في كتابه عن عمر بن الخطاب ص ١٥٦ أن عمر فرض لأزواج رسول الله ﷺ عشرة آلاف إلا جويرية وصفية وميمونة ، فقالت عائشة : « إن رسول الله كان يعدل بيننا ، فرجع عمر إلى عمل رسول الله وعدل بينهن في المطاء .

الفصل الثالث

في إجمال سيرته معهن

لقي أزواج النبي ﷺ من حسن رعايته وجميل عنايته ما كان مضرب المثل ، وكان ينتهج معهن نهجاً كله عطف وصبر وحلم ، ليتخذ الناس من هذا النهج قدوة يسرون عليها في معاملة النساء وقد قال : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي » .

كان يتعهدهن كل يوم : يطوف عليهن أو يجتمعن عند صاحبة النوبة يحدثهن ويلطفهن وربما سمر^(١) معهن ثم يبيت عند صاحبة النوبة ، ويقسم بينهن قسماً عادلاً لا يفضل واحدة على واحدة في القسم ، وكان شديد الخوف من الله أن يخطيء في العدل بينهن : يقسم ويقول : « اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك »^(٢) يعني من ميل قلبه إلى بعض أكثر من بعض . كل ذلك كان حرصاً على

(١) حفظت كتب الحديث شيئاً من هذا السمر الشائق ، فانظر مثلاً في السمط

الثمين (ص ٨) تحديثه نساءه حديث النفر الذين خطبوا المرأة وجعلوا صفاتهم إلى أحدهم ، ليصف لها كل واحد منهم لتأخذ منهم من تحب فتزوجه بعد أن سمعت صفته

(٢) السمط الثمين ص ٧

تأدية حقهن وجبر قلوبهن ، وتعليماً لأمته أن يبـالغوا في تحري العدل بين زوجاتهم . فإذا سافر « أقرع بين نسائه ؛ فأيتهن خرج سهمها سافر بها » وكان يلحق المرأة منهن يوم وليلة في كل تسعة أيام ، إلا عائشة : فإن سودة لما كبرت وهبت يومها لها ابتغاء مرضاة الرسول .

وعن طريق أمهات المؤمنين عرفنا خلقه ﷺ وسيرته في بيته مهن :

سئلت عائشة : « ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته ؟ » قالت « كما يصنع أحدكم : يخصف نعله ويرقع ثوبه » ^(١) وزادت في رواية « ويرقع دلوه ويحلب شاته ويخدم نفسه » ^(٢) ولقد وصفه خادمه أنس بقوله : « خدمت النبي ﷺ عشر سنين فما قال لي أف قط ، ولا قال لشيء صنعتُه : لم صنعتُه ؟ ولا لشيء تركته : لم تركته ؟ » ^(٣)

وسئلت أيضاً عائشة : « كيف كان رسول الله إذا خلا في بيته ؟ » قالت : « كان ألين الناس بساماً ضحاً كماً ، لم يرق قط ماداً

(١) مسند أحمد ١٠٦/٦ وفي السمط الثمين ص ١١ هذه الزيادة « يشيل هذا ويحط هذا ويخدم في مهنة أهله ، ويقطع لهم اللحم ويقم (يكبس) البيت ويعين الخادم في خدمته ! »

(٢) شرح المواهب للزرقاني ٢٦٣/٤

(٣) الجزء نفسه ص ٢٦٢

رجليه بين أصحابه ^(١) » وسئلت: « كيف كان خلق رسول الله ﷺ في أهله ؟ » قالت : « أحسن الناس خلقاً : لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ولا سخائباً في الأسواق ولا يجزي بالسيئة مثلاً ، ولكن يعفو ويصفح » ^(٢) ، « ماضرب رسول الله ﷺ خادماً له قط ، ولا ضرب يده إلا أن يجاهد في سبيل الله ، وما نيل منه شيء فانتقمه من صاحبه إلا أن تنهك محارم الله عز وجل فينتقم الله عز وجل ، وما عرض عليه أمران أحدهما أيسر من الآخر إلا أخذ بأيسرهما إلا أن يكون مأثماً ، فإن كان مأثماً كان أبعد الناس منه » ^(٣) .

احتمل الرسول كثير أفي حسن معاملته ولطفه معهم وفي سبيل تطيب قلوبهم ولقد نعمن بعطفه وعشن في جنبه العيش الطيب الهنيء ووسعن قلبه الكبير حتى كان لهن الأب والمعلم والزوج ماً . ولقد أعنته على أمره بما وسعن : فكن يعلمن النساء السنة والدين ، ويخرجن معه في الفزوات يسقين الجرحى ويقاتلن أحياناً . ذكر الزمخشري أن أزواج رسول الله ﷺ كن « بدجن (يعيشن بالحل وقد أثقلهن) بالقرب يسقين أصحابه بادية خدامهن (خلايلهن) في غزوة أحد » . ^(١) ومربك

(١) شرح المواهب للزرقاني ٢٦٣/٤

(٢) مسند احمد ٢٣٦/٦ . السحاب : كثير الصخب وهو شدة الصوت

(٣) المصدر نفسه ٣١/٦

(٤) الفائق للزمخشري ٢٠٢/١

آناً نموذج من وفائه ﷺ لمن مات منهم ، لقد لقين من نبل شمائله
 ما لا يطمع ولد أن ينال بعضه من والد محب .

وبقي ﷺ كثير الاهتمام بأمرهن وكان يقول : «إِنَّ أَمْرَ كُنْ
 لما يهمني من بعدي ، ولا يحنو عليكن بعدي إلا الصابرون » (١) ولم
 ينتقل إلى الرفيق الأعلى إلا وهو واثق من أن جميع الصحابة سيكونون
 لهم الأبناء البررة ، وكذلك كانوا رضي الله عنهم أجمعين .

الفصل الرابع

سيرتهن بعده وعناية الخلفاء بهن

توفي رسول الله ، وعاش أزواجه بعده سنين طويلة حتى أدرك بعضهن خمسين سنة بعد وفاته ، وكان الخلفاء والأمراء وعامة المسلمين يتسابقون في برهن ورعايتهن ويتنافسون في إعظامهن واحترامهن ، وانقطعن بعده ﷺ إلى الصلاة والصوم والحج والصدقات .

ولقد أكثرن من العبادة في حياته ، ورغبن في كل نوع منها ، عبادتهن حتى الجهاد فقد خاطبن النبي بأمره فأجابهن : « جهادكن الحج » (١) فكانت تروى عنهن المآثر في الزهد والورع ، وكان النساء والرجال يقصدونهن للتعلم والسؤال وهن يحدثن كلاً بما سمعن ورأين من قول النبي وفعله وحاله ، وأصبحن أسوة لغيرهن من النسوة في التدين والانقطاع إلى الله ، وكانت سيرتهن خير سيرة ينبغي أن يكون عليها نساء الأنبياء صلوات الله عليهم .

هذا أمرهن من حيث الدين والتقوى والورع ، ثم اختلف هن والسياسة اجتهدهن في أمر الدخول في المسائل العامة أو (السياسة) باصطلاح

عصرنا: فأما عائشة فخاضت السياسة واقتحمت الأمور العامة وأوغلت فيها أيما إيفال، وأما غيرها كأم سلمة فأنكرت عليها هذا الخوض كل الإنكار، والبواقي اعتزلن السياسة سلباً وإيجاباً واشتغلن بعبادتهن.

لما كان الخليفة الأول أبو بكر رضي الله عنه أراد أزواج النبي في عهد أبي بكر رضي الله عنه أن يرسلن عثمان بن عفان رسولاً إلى أبي بكر يسأله مواريثهن من سهم رسول الله ﷺ بخير وفدك، فقالت لهن عائشة: «أما تتقين الله؟ أما سمعتن رسول الله ﷺ يقول: «نحن معاشر الأنبياء لانورث، ما تركنا: صدقة. إنما هذا المال لآل محمد لناثبتهم وضيئفهم، فإذا مت فهو إلى ولي الأمر من بعدي»^(١)؟ «فأمسكن.

فرض أبو بكر العطاء بالتسوية بين الناس وكان رأي عمر التفريق بينهم على حسب السابقة والهجرة والفضل، فلما آلت إليه الخلافة، وافتتح العراق والشام وجبى الخراج، جمع أصحاب رسول الله ﷺ فقال: «إني قد رأيت أن أفرض العطاء لأهله الذين افتتحوه» فقالوا: «نعم الرأي رأيت يأمر المؤمنين» قال: «فبمن أبدأ؟» قالوا: «بنفسك»

(١) فتوح البلدان للبلاذري (أوروبا) ص ٣٠ وانظر: الإجابة لإيراد

قال : « لا ، ولكنني أضع نفسي حيث وضعها الله ، وأبدأ بآل رسول
تفضيلهم في المطاء الله ﷺ » فكتب عائشة أم المؤمنين في اثني عشر ألفاً وكتب سائر
أزواج النبي في عشرة آلاف عشرة آلاف ثم فرض بعد أزواج النبي ﷺ
(لبني هاشم) لعل بن أبي طالب خمسة آلاف ولبن شهد بدرأ من
بني هاشم .. (١)

ولا بأس بلفت نظرك منذ الآن إلى كلمة عمر « ولكنني أضع نفسي
حيث وضعها الله فأبدأ بآل رسول الله » ففيها شاهد قوي على ما نختصم
به هذا الباب من بيان فضل أمهات المؤمنين على جميع الأصحاب بلا
استثناء ، فإن اعتراف عمر هذا له قيمته وخطره وحجته .

اتخذ عمر تفضيل أزواج النبي خطة لا يحميد عنها في كل فرض
يفرضه للناس : ذكر الطبري أنه كان « يجعل لكل نفس منقوسة من
أهل النبي في رمضان درهماً في كل يوم ، وفرض لأزواج رسول الله
ﷺ درهمين درهمين » (٢)

هذا وكان عمر كثير الحذب عليهن والرعاية لهن في الأمور الجليلة

(١) فتوح البلدان ص ٤٩ واليعقوبي ١٧٥/٢ وكتاب الأموال لابن سلام ص

٢٢٤ والأحكام السلطانية لأبي يعلى ص ٢٢٢

(٢) تاريخ الطبري ٣/٣٠٧ مطبعة الاستقامة

والدقيقة حتى قالت عائشة: «كان عمر بن الخطاب يرسل إلينا بأحظائنا (بمحصنا) حتى من الرؤوس والأكارع»^(١) ولما قسم خيبر خيبر أزواج النبي ﷺ أن يقطع لهن من الأرض أو يضمن لهن مئة وسق كل عام (وهو نصيب كل منهن أيام النبي ﷺ) ، فمنهن من اختارت الأوسق ، ومنهن من اختارت الإقطاع^(٢) فبقين مكفيات مؤونة العيش كما كن على عهد رسول الله ﷺ ، بل إن منهن من تبرمت بمطاء عمر زهداً وورعاً:

لما جاء العطاء بعث عمر إلى زينب بنت جحش بالذي لها ، فلما أدخل عليها قالت: «غفر الله لعمر ، غيري من أخواتي أقوى على قسم هذا مني» قالوا: «هذا كله لك» فقالت: «سبحان الله!» واستترت دونه بثوب وقالت: «صبوه واطرحوا عليه ثوباً» ففعلوا فقالت لبرزة بنت رافع: «أدخلي يدك فاقبضي منه قبضة فاذهبي إلى آل فلان وآل فلان» من أيتامها وذوي رحمها ، فقسمته حتى بقيت منه بقية ، فقالت لها برزة: «غفر الله لك ، والله لقد كان لنا في هذا حق» قالت: «فلكم ما تحت الثوب» فكشفت الثوب فوجدت

(١) الطبقات لابن سعد

(٢) الخراج لأبي يوسف ١٠٦

خمسة وثمانين درهماً ، ثم رفعت زينب يدها وقالت : « اللهم لا يدركني عطاء عمر بعد عامي هذا ^(١) » فماتت وكانت أول أزواج النبي لحوقاً به .

هذا وقد رغبت أمهات المؤمنين في الحج فاستأذنَّ عمر فأبى أن يأذن لمن حتى أكثرن عليه فقال : « سأذن لكن بعد العام وليس هذا من رأيي » فلما أردن الحج جهزن وأرسل معهن عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وأمرهما أن يسيرا أحدهما بين أيديهن والآخر من خلفهن ولا يسايرهن أحد ، وقال : « فاذا نزلن فأنزلوهن شعباً ثم كونا على باب الشعب لا يدخلن عليهن أحد » ثم أمرهما إذا طفن بالبيت ألا يطوف معهن أحد إلا النساء ، فلما هلك عمر غلبن من بعده ^(٢) . ولو أن غيرهن طلب هذا الطلب ما لان عمر ، ولكنه رحمه الله كان شديد التعظيم لقدرهن كبير الرعاية لحرمتهم .

وسار على سيرة عمر فيهن الخليفة عثمان بن عفان بعده ، فقد « حج بأزواج رسول الله ﷺ كما كان يصنع عمر ، فكان عبد الرحمن بن عوف في موضعه ، وجعل في موضع نفسه سعيد بن زيد : هذا في

في عهد عثمان

(١) السمت الثمين ص ١١١

(٢) الرياض النضرة ٢/٢٣

مؤخر القطار وهذا في مقدمه (١) ، على أن منهن من كانت شديدة الصلابة في أمر الخروج من البيوت فلم تخرج أبداً . فقد ذكروا أن رسول الله ﷺ قال لنسائه عام حجة الوداع : « هذه ثم ظهور الحصر » يعني أن لاجب لكن بعد هذه الحجة ، فكان كلهن يحجبن إلا زينب بنت جحش وسودة بنت زمعة كاتتا تقولان في ذلك : « لا تحر كنا دابة بعد أن سمعنا ذلك من رسول الله ﷺ » . (٢)

لبثت أمهات المؤمنين إلا من ذكرنا يخرجن إلى الحج كما استطعن أيام عمر وعثمان « يختصن بالحناء وهن حرم ويحجبن بالمعصرات » (٣) « يعرف الناس هن من الاحترام والإجلال ماخصهن الله به ، حتى إذا انقضت أيام عمر ، واشتد النفور بين عثمان وبعض الرعية ، كانت بيوتهن ملجأ الطرفين على السواء ، وكانت نصائحهن نافذة يخضع لها الكبير والصغير .

ولعل من الخير أن تثبت لك شاهداً على ذلك : حواراً دار بين أم سلمة أم المؤمنين والخليفة عثمان بن عفان . قالت أم سلمة لعثمان وهي تعظه (٤) :

(١) الطبري ٤٢٧/٣ مطبعة الاستقامة

(٢) السمط الثمين ص ١٠٥ وقال أخرجه أحمد

(٣) طبقات ابن سعد ٤٩/٨

(٤) أمالي الزجاني ص ١٢٥ (المطبعة المحمودية التجارية) ١٩٣٥

« يابني مالي أرى رعبك عنك نافرين، ومن جنبك مُزورين^(١) لا تعف^(٢) طريقاً كان النبي ﷺ لحبها^(٣)، ولا تقتدح زنداً كان أكباها، توخ^(٤) حيث توخى صاحبك، فأنها نكماً^(٥) الأمر نكماً لم يظلموا أحداً فتيلاً ولا فقيراً، ولا يُختلف إلا في ظنين^(٦) هذه حق بنوتي قضيتها إليك ولي عليك حق الطاعة ».

فقال عثمان :

« أما بعد فقد قلت ووعيتُ، ووصيت فاستوصيتُ، ولي عليك حق النصّة: إن هؤلاء القوم الغثرة تطأطأت لهم تطأطؤ الدلاة، أراينهم الحق إخواناً، وأراهم الباطل إياي شيطاناً، أجزرت المرسون منهم رسنه، وأبلغت الرايع مسقاته، ففترقوا عليّ فرقاً: صامت صمته أنفذ من قول غيره، ومزين له في ذلك، فأنا منهم بين السنة لداد، وقلوب شداد، وسيوف حداد. ألا ينهى حلیم سفيهاً؟ ألا يعظ عالم جاهلاً؟ عذيري الله منهم يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون. »^(٧)

(١) مزورين : مبتعدين . لا تعف : لا تمح . لحب : أوضح . نكماً الأمر لزماً ولم يحيدا عن الحق . الظنين : المتهم .

(٢) الغثرة : السفلة والرعاع . تطأطأت : انحنيت (يريد تواضعت وخضعت) . الدلاة : الذين يستخرجون ماء البئر بالدلو . المرسون : الذي عليه الرسن ، وأجره رسنه : تركه يرعى كيف شاء

الفصل الخامس

منزلتهن الاجتماعية ومشاركتهن في الأمور العامة

لم يتح لأحد من أمهات المؤمنين أن يكون لها أدنى أثر في السياسة العامة على عهد الخليفين أبي بكر وعمر ، فانهما كانا من الكفاية بحيث غطيا على الفحول المحنكين من الرجال فما بالك بالنساء ، لقد اقتصر شأنهن على الرواية والتحديث : يُستفتين في المسائل من أمور الدين وخاصة فيما لا يعاينه إلا النساء ، فبقين بعد وفاة الرسول مثابة لرواد الفقه وحملة الشريعة ، وهذا من حكمة الله ورحمته بهذه الامة إذ جعل من أزواج صاحب الرسالة من تعيد سيرته المطهرة خمسين سنة تنشر تفاصيلها للناس ، كأن الوحي لم ينقطع وكأنهم من أنواره في شمس لا يلم بها أفول ولا تحجبها ظلمة ، وليس كل السنة يتسنى للرجال معرفتها ، ولولا ما نشرن منها لضاع علم كثير .

ومن رجع إلى أمّات كتب الحديث ودواوين السنة وخاصة المساند منها ، فرأى ما روى منها عن أمهات المؤمنين لهالته كثرته ،

لقد كانت بيوتهم مدارس لنشر الحديث ، وتهافت الرواة عليهم من كل جانب وتنافسوا في الأخذ عنهم كل التنافس ^(١) . ولقد روى عن عائشة وحدها ربع السنة — على ما يقول الحاكم — وهو شيء عظيم جداً .

حتى أبو بكر وعمر وعثمان وغيرهم من كبار الصحابة كثيراً ما كانوا يسألونهم في دقائق المسائل وجلالها .

لكنهم لما انتشرت الأمور على عثمان آخر خلافته ، أصبحن يُقصدن لغير الاستفتاء والرواية والعلم ، أصبحن يقصدن من الرعية الناظرين على إمامهم (ليدخلن) في السياسة وليحملن الإمام على تغيير

كن مرجع الناس
أيام عثمان

(١) عدة من روى عن السيدة عائشة وحدها بلغوا نحو المئتين ، تجد أسماءهم في الرسالة التي نشرناها قبل شهر للحافظ الذهبي في سيرتها (سير النبلاء ١١/٢ — ١٧) وفي (الإجابة لإيراد ما استدر كته عائشة على الصحابة) للزركشي (ص ٤٠ وفي الحاشية ص ٤١ ، ٤٢) هذا وخير ما يصور لك مكانتهم : سمو نفوس الرواة إلى شرف الأخذ عنهم حتى استسهل بعضهم نوعاً من الكذب ليمد في جملة الرواة عنهم ، جاء في (الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التوريبخ ص ٩) هذه الافكوهة : وروى سهيل بن ذكوان أبو السندي عن عائشة — وزعم أنه لقيا بواسط ... وهكذا يكون الكذب ! فثوت عائشة كان قبل أن يخط الحجاج مدينة واسط بدمر !! اه

خطته وإصلاح سيرته ، وصار يرسل إليهن الخليفة عثمان أيضاً ليكبحن من شماس هذه الثورة ، فلم يقصر أغلبهن في النصيح لكلا الطرفين . وهذا غاية ما يصل إليه نفوذ أرباب الزعامة :

لما أراد أهل الأمصار دخول المدينة في الشكوى على عمال عثمان استأذنوا أزواج النبي ﷺ وعلياً وطلحة والزبير وقالوا : «إنا نأتم هذا البيت ونستعفي من عمالنا» وشكوا إلى أمهات المؤمنين وإلى الصحابة قتل ابن أبي سرح رجلاً منهم لأنه شكاه .. الخ .

ثم آلت الأمور من سيء إلى أسوأ ، وأهل الأمصار آمنون على أنفسهم إذ دخلوا بأذن أزواج النبي ﷺ وسلم ، فلما اشتد الأمر وحوصر عثمان ومنع الماء ، استنجد أول ما استنجد بهن ، فصرن يسرن إلى الماء ،

وكن صريح
عثمان معه

ووصلت إليه أم حبيبة على بغلة لها برحالة مشتملة على أداة فليل : « أم المؤمنين أم حبيبة » فضرب الشائرون وجه بغلتها .. الخ ^(١)

وحسبك لتعرف مقدار نفوذهن على الجماهير : أن مروان بن الحكم لما رأى السيدة عائشة خارجة إلى مكة تريد الحج ، رغب إليها أن تبقى ، قائلاً لها : « يا أم المؤمنين : لو أقت كان أجدر أن يراقبوا

هذا الرجل . . . » ^(١) فلم تفعل . بل إن الخليفة عثمان بن عفان نفسه يقبر هذه المنزلة العظمى لمن بعمله وقوله ، ويدعن لأمرهن في نصب الولاية وعزلهم ، فقد كان في جملة الدفاع المسهب الذي أرسله — وهو محاصر — يستنجد به المسلمين والمؤمنين ، وقد تلي في موسم الحج سنة خمس وثلاثين : قوله وهو يصف شغب الثأرين عليه ونزوله على كثير من مطالبهم :

« وجئت نسوة النبي ﷺ حتى كلمتهن فقلت : « ما تأمرني ؟ » فقلن : « تؤمر عمرو بن العاص وعبد الله بن قيس ، وتدع معاوية فانما أمره أمير قبلك فانه مصلح لأرضه ، راض به جنده . وازدد عمرأ فان جنده راضون به وأمره فليصلح أرضه . . فكل ذلك فعلت ... » ^(٢)

(١) المصدر السابق . ولعل أعظم ما أفسد على الخليفة الرابع أمره ، كون عائشة خصماً له ، ولولا أنها خرجت عليه ما استجابت الجماهير لطلحة والزبير ، فإنهما لم يصنعا ما صنعا يوم الجمل إلا بعائشة ، ولولا اشتغال علي بهذه الخصومة لآلت أموره إلى غير المال المعروف . لقد قوضت رضي الله عنها بناء خلافته تقويضاً بما لها من نفوذ وحرمة في نفوس الجماهير .

إلى هذا الحد بلغت منزلتهن في المجتمع الإسلامي وفي نفوس المسلمين ولائهم ورعيتهم . ثم كان الخلفاء بعد هذا الهرج يكتبون إليهن في المسألة من الدين ، ويدعون لنصحهن ، ويحترمون من دخل ملتجئاً إليوتهن .



وبعد ، فإن الإمام ابن حزم الظاهري قد ألف رسالة « في المفاضلة بين الصحابة »^(١) ذهب فيها إلى أن أزواج النبي صلوات الله عليه أفضل الخلائق بعد الملائكة والنبين . واحتج لمذهبه هذا بما لا غاية بعده ، ورد كل اعتراض يمكن أن يعترض به عليه ، مستنداً إلى النصوص الصريحة من القرآن الكريم والحديث الصحيح ، وليس يسع أحداً قرأ هذه الرسالة إلا أن يقره على دعواه . ونحن هنا إذ نحيل القارئ على رسالته تلك القيمة ، نورد منها على سبيل المثال هذه الفقرة فقط :

(١) رسالة كنا عثرنا عليها مخطوطة في دار الكتب الظاهرية بدمشق ، فحققناها وشرحناها خدمة لبحثنا هذا : إذ رأيناها مقصورة على هذا الموضوع وهو تفضيل أمهات المؤمنين على جميع الصحابة . وقدما بين يديها دراسة مستفيضة بكرة عن الإمام ابن حزم وأصدرتها المطبعة الهاشمية سنة ١٩٣٩ م باسم (ابن حزم الأندلسي ورسالته في المفاضلة بين الصحابة)

«إنه لاتعظيم يستحقه أحد من الناس في الدنيا بإيجاب الله تعالى ذلك علينا ، بعد التعظيم الواجب علينا للأنبياء عليهم السلام : أوجب ولاؤكد من التعظيم الواجب علينا لنساء رسول ﷺ بقول الله تعالى: «النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم» فأوجب الله تعالى لهن حكم الأمومة على كل مسلم . هذا سوى إعظامهن بالصحبة لرسول الله ﷺ ، فلهن حق الصحبة له كسائر الصحابة ، إلا أن لهن من الاختصاص في الصحبة ووكيد الملازمة له عليه السلام ولطف المنزلة معه والقرب منه والخطوة لديه ما ليس لأحد من الصحابة ، فهن أعلى درجة في الصحبة من جميع الصحابة . ثم فضلن جماعة الصحابة لحق زائد وهو حق الأمومة الواجبة لهن كلهن بنص القرآن . فوجدنا الحق الحق الذي به استحق الصحابة الفضل قد شر كنهم فيه وفضلنهم أيضاً ، ثم فضلنهم بحق آخر زائد وهو حق الأمومة . ثم وجدناهن : لاعمل من الصلاة والصدقة والصيام والحج وحضور الجهاد يسبق فيه صاحب من الصحابة إلا ولهن في ذلك مثل ماغيرهن من الصحابة : فقد كن يجهدن أنفسهن على ضيق عيشهن ، على الكد في العمل بالصدقة والعنق ، ويشهدن الجهاد معه ﷺ .

وفي هذا كفاية بينة في أنهم أفضل من كل صاحب ^(١) «
ولعلك بعد، لم تنس كلمة عمر آفأوقدلفت نظرك إليها ص ٩٦ وقد
أشاروا عليه أن يبدأ في فرض العطاء بنفسه فقال: « لا ، ولكنني أضع
نفسى حيث وضعها الله ، أبدأ بآل رسول الله » ^(٢)



(١) ابن حزم الأندلسي ورسائله في المفاضلة بين الصحابة ص ١٨٥ - ١٨٦
(٢) لقد بلغ من شأن هذه الطبقة (أمهات المؤمنين) ، أن أفردهن جماعة من
الملاء بالتأليف المستقل ، فمن فعل ذلك : أبو عبيدة معمر بن المثنى ، وزهير بن
الملاء ، والمسي والمحب الطبري وغيرهم ، انظر كتاب : (الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل
التوريع) للحافظ السخاوي ص ٩٢ ، ٩٣ مطبعة الترقى بدمشق سنة ١٣٤٩ هـ
هذا ولم نطلع على شيء من هذه المؤلفات إلا كتاب الحب الطبري فإنه طبع
بالمطبعة العلمية بجلب سنة ١٣٤٦ هـ واسمه (السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين) .
وقد اطلعت على جزء صغير مخطوط في الخزانة الظاهرية بدمشق اسمه (المنتخب من
كتاب أزواج النبي للزبير بن بكار) رقمه (مجموع ٤١ - ابتداء من الورقة ١٢٣) .
وبالظاهرية أيضاً جزء فيه (تسمية أزواج النبي وأولاده) لأبي عبيدة معمر بن المثنى
رقمه (عام ٤٥١٤) .

وفیہا (کتاب الأربین فی مناقب أمہات المؤمنین) لأبی منصور عبد الرحمن بن عساکر أورد أربین حدیثاً فی مناقبہن .

وذكر ياقوت أن لأحمد بن كامل بن خلف أحد أصحاب الطبري ، المتوفى سنة

خاتمة

في حجراتين
وأخر عهد
الناس يا

كان الداخل في مسجد رسول الله ﷺ على عهده ، يرى بيوتاً من جريد النخل مستورة بمسوح الشعر، مصفوفة تسع حجرات في شرقي المسجد وشماليه وقبله ، ولم يُبْن منها شيء جهة الغرب ، ويرى لحجرة عائشة مصراعاً واحداً من عرعر أو ساج ، ^(١) وأبواب الحجرات التسعة شارعة إلى المسجد .

بقي المصلون والزائرون من جميع الأقطار ، ينعمون بمراى بيوت النبي هذه معتبرين خاشعين لجلال الذكرى ... إلى أن كانت خلافة الوليد بن عبد الملك ، فأمر بهدمها لتدخل في المسجد . وإليك رواية شاهد عيان :

قال عطاء الخراساني :

« أدركت حجرات أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من جريد على أبوابها المسوح من شعر أسود ، فحضرت كتاب الوليد

(١) وفاء الوفاء ص ٣٢٥ - ٣٢٧ وعن هذا المصدر أقوال الشهود التالية

ابن عبد الملك يُقرأ : يأمر بهدمُ حجر أزواج النبي ﷺ ، فما رأيت يوماً أكثر بأكياً من ذلك اليوم . وسمعت سعيد بن المسيب يقول : « والله لوددت أنهم تركوها على حالها . ينشأ ناشئ من المدينة ، ويقدم قادم من الآفاق فيرى ما اكتفى به رسول الله ﷺ في حياته ، ويكون ذلك مما يزهد الناس في التكاثر والتفاخر فيها . »

وقال شاهد آخر وهو عمران بن أبي أنس :
 « ... فلقد رأيتني في المسجد وفيه نفر من أبناء أصحاب النبي ﷺ ،
 وإنهم لي يكون حتى أخضل الدمع لحام ، وقال يومئذ أبو أمامة :
 « ليتها تركت حتى ينقص الناس من البنيان ، ويروا ما رضى
 الله لبنيه ﷺ ومفاتيح خزائن الدنيا بيده ! »
 ونحن نقول : ليتهم تركوها فيعتبر معتبر ، يزهد طامع ،
 ويذكر غافل ، ويخشع خاشع .

* * *

رحم الله أمهات المؤمنين ، ورضي عنهن ، وجزاهن عن الأمة خيراً .

ملحق

المرأة والسياسة^(١)

الحكم في هذه القضية لسنة الله في المرأة ، وما فطرها عليه من خصائص غريزية (فسيولوجية) وعاطفية وفكرية ؛ خصائص قاهرة لا يد للإنسان في تحويلها إلا حين يستطيع تحويلاً في تركيب الدماغ وبنية خلاياه ، أو حين يبدل في وظائف الأعضاء فيذوق بأذنه أو يسمع بقدمه .

إنها فوارق بين الرجل والمرأة أزلية أبدية ، اقتضتها الحكمة الكونية العميقة التي تعنى دائماً بالتمييز الدقيق ، عناية تتطلبها عمارة هذه العوالم القائمة على تقسيم الأعمال وتيسير كل من الكائنات إلى ما يلائمه وما خلق له ، وكل مجتمع يحاول بُنائه إلفاء تلك الفوارق الواضحة بين أعمال الجنسين فمضيره إلى الاضطراب والفساد : لأن ذلك ثورة على الطبيعة ، وما كان ثورة على الطبيعة فنه الضرر كل الضرر ؛ ولا يرجى له دوام ، وإن خُيِّلَ لبعض الأفراد والجماعات (سطحية في تفكيرهم أو تعصباً لمذهبهم) إمكان الاستمرار عليه .

والطبيعة في هذا حكمها واحد لا يختلف باختلاف الأمم ولا

(١) هنا ينتهي كتاب (الاسلام والمرأة) في طبعته الأولى ، فرأينا - إتماماً للفائدة - أن نلاحق به فصلين المؤلف من كتابه (عائشة والسياسة) لشدة علاقتهما بموضوع المرأة اليوم - دار الفكر

بإختلاف الأعصار والأمصار ، ولا بتفاوت المجتمعات رقياً وانحطاطاً .
ولا بتباين الأفراد تربية وثقافة .

المرأة نظام الأسرة وسيدة البيت ، فمهما احتلت لتخرجها عما خلقت
له من رعاية أطفال وبرّ زوج وتدير منزل ... فانما تحاول خرقاً
لقانون طبيعي ، إن أنت وفقت إلى إطالة هذا الشذوذ أزماناً فلن
يخرجه المهد الطويل ولا العرف المنحرف عن أن يكون شذوذاً
يقضي العين ويصدم الفؤاد .

فن البديهي إذاً أن تكون قيادة الجيوش وإدارة المصالح العامة
وتدبير الممالك وسياسة الناس ... فن الرجال الخصاص كما أن الأمومة
وما إليها فن نسوي محض . ولئن حفظ التاريخ شواهد عديدة في قيام
المرأة بشؤون السياسة والإدارة ، إني لا أجد في هذه الشواهد كلها
ما يعكس هذه القاعدة ، بل أقرر أنها كلها تؤيدها ، ولأي مثقف كان
أن يسرد ما في حفظه من ملكات أو قائدات أو زعيمات أو مدبرات ملك
أو نائبات في المجالس ... الخ ثم يستقري أحوالهن واحدة واحدة ،
ويعمن فيما حف بهن ، فسيدرك أن أكثرهن كن مسيئات بتصرفهن ،
عدن على بلادهن بأسوأ المواقب .

الحق أن الإدارة والسياسة تقتضيان بعداً في التفكير ، ومنطقاً

سديداً ، وحساباً دقيقاً للمواقب ، وصبراً مضنياً ، وضبطاً للمواقف وكبحاً للأنهواء والنزوات ... إلى صفات كثيرة كلها يعوز المرأة بل يعوز أكثر الرجال ، فلا عجب أن كان اضطراب الأمور ودخول المرأة في السياسة قرينين في التاريخ لا يفترقان إلا حين يدبر الأمور للمرأة وزراء حصيفون من وراء ستار ؛ ومع هذا فقلما خلت امرأة — مهما حف بها من خول محنكين — من طامع فيها مستغل لضعفها . وما أكثر ما حفظ التاريخ من سير عروش كان الغرام هو الحاكم في ممالكها . وهناك كلمة متداولة منذ القديم ، لأشك في أنها عصارة التجارب على الزمن ، وهي قولهم : « المرأة ريحانة وليست بقهرمانة » .
ويعجبني في ذلك حكم ظريف أصدرته الكونتس أوف أكسفورد ،
قالت :

« هل تستطيع أن ترى امرأة صائرة إلى منصب رئيس وزارة ؟
إني لن أستطيع أن أتصور نكبة أعظم من وضع هذه الجزر البريطانية تحت قيادة إحدى النساء في شارع دوننج رقم ١٠ » ^(١)

(١) من كتابها (في السجلات) انظر الممد ٥٦٥ من مجلة الرسالة ص ٣٦٩ .

— هذا وأقرب عبرة منا ما وقع في فرنسا في هذه الحرب العالمية الثانية من دس المرأة أنفسها في السياسة العليا وذهاب فرنسا ضحية هذا (التدخل) حتى قال أندره موروا الأديب الفرنسي الأشهر : « إن الكونتس (دي بورت) .. مستذهب في —

ولنتصور نحن - على نسق الكونتس - أحوال المشتغلين بالسياسة في الشرق صحفيين وأحزاباً ووزراء ونواباً ومن يتبع هؤلاء من محترفين ومرترقة ... ، وما ينشأ من تراجمهم وتكالبهم على المنافع من خصومات وعداء وجدل ومهاترات وتراشق بالتهم والسباب ثم مظاهرات فيها اشتباك والتحام ، ثم ما ينجم عن ذلك من قتلى وجرحى ومشوهين ومسجونين ... لنتصور ذلك وما إليه ، ولنتصور معه أن النساء يشاركن فيه الرجال بين محترفات وتابعات وداخلات في الأحزاب ومساهمات في المهاترات الصحفية وما إليها ؛ وأن منهن أيضاً نائبات وموظفات ، وأن كلا منهن تهاجم وتدافع ، وتلقى التهم والشناعات وتري غيرها بأمثالها ... وقد خلت منهن بيوتهن وأصبح الرجال والأطفال (رحلاً مشردين) في المطاعم والمقاهي ، إذ شغلت السياسة والانتخابات من كن يقمن بإدارة بيوتهم ... ولنرجع بعد

— التاريخ (على أنها) المرأة التي خربت فرنسا... والنساء اللواتي على غرارها أدوات هدم لأن أدمتهن التي تحوّل الدسائس وشخصياتهن التي توقع الرجال لا تعرف حداً للآثران ...

« وهكذا أصبحت الكونتس (دي بورت) من قواد الطابور الخامس الفرنسي وأصبح صالونها مركز القيادة » . — ترجمة الصاوي لكتاب (مأساة فرنسا) لأندره موروا ص ١٠٣ ، ١٠٥ .

هذا التصور إلى نفوسنا : أنجد فيها تعبيراً يفي بشناعة مجتمع كهذا ؛
حنانيك أيها القارئ أعف نفسك وأعفني من فظاعة هذا التصور ،
وإني لأستغفر الله لي ولك من خاطر يجعل مكان أولئك المحترفين نباتنا
وأخواتنا وأزواجنا وأمهاتنا: انصرفن عن رعاية أسرهن فأخذن مكان
ذلك وهذا ممن نرى من خِواض المهارات والتكالب على فتات
السياسات . إن مثل هذا المجتمع خالٍ من كل كرامة وحياة ، ولن
يكون منه لحياة الدعة والحنان والنبيل والإنسانية أثر ما ، هذا مجتمع
خسر طعم السعادة منذ انهار فيه بناء الأسر ذو الجواحب العطر الجميل .
لقد سارت أمم غربية راقية في أوربة وأمريكا خطوات فسيحة في
تحميل النساء أعباء سياسية ، فإظفرها ذلك بباطل ، بل كانت نتيجة
التجربة أن ضج عقلاؤهم ومصلحوهم من تلك الأوضاع الشاذة الخارجة على
الفطر السليمة ^(١) .

(١) أحدثت ماقرأت في هذا الباب شكوى الدكتور (ألكسيس كاريل)
حائز جائزة نوبل الطبية ، فقد نشرت له مجلة المختار من ريدرز دايجست (في العدد
٣٦ من الطبعة العربية) بحثاً عنوانه (لبن الأم حق طبيعي للطفل) هذه الأحكام
التي وردت في كلامه عرضاً ، وهي مع ذلك — لقوتها في نفسه — تصور خير
تصوير انحراف المجتمع الحديث عن الفطرة ، وتؤيد — من قرب — مذهبنا إليه ، قال :
« ... فالأم في هذا المصير ليس لها من تعليمها ولا عاداتها ما يهيئها للأمومة
ومقتضياتها ... ويرى كثير من الأمهات أن عملهن ومستقبلهن وشهواتهن الاجتماعية
أهم من رعاية أطفالهن ، ولا يدركن أن المرأة إنما خلقت للأمومة . —

وليس تاريخ العرب يبدع في تواريخ الأمم، فالحكم واحد كما أسلفنا
 فـيـث رأيت انحطاطاً في إدارتنا أو تقهقراً في سياستنا أو انحلالاً في
 مجتمعا، ففتش ثمة عن المرأة .

وكتابنا هذا فيه أكبر عبرة انطوى عليها تاريخنا في هذا الموضوع
 ولم ينجنا من العاقبة الوخيمة : عاقبة دس النساء أنوفهن في السياسة ،
 أن كانت الزعيمة هنا متحلية بمزايا عبقرية قل أن يحوي مثلها رجال
 عديدون ، ولم ينجنا كذلك رغبتها القوية المخلصة في الإصلاح وابتغاء
 الخير للمسلمين .

— والأم في العصر الحديث فريسة في مخالب البيئة الاقتصادية والبيئة العقلية،
 فقد ضرب المجتمع صفحاً عن قوانين علم الحياة ، وبخاصة قانون النسل . فالبنت قد
 حرمت معرفة العمل الذي خلق له وجهلن قدره في حياة البشر، بل صرن يتعلمن
 ما يتعلمه الصبيان ، وصرن بمنزلة الذكور : لهن مالهمن في الحياة ، وعليهن ماعليهن ؛
 فصار على المرأة أن تعمل نفسها كما يفعل الرجل . فكيف يتأتى لعامله في مصنع أو
 مكتب ، أو لمدرسة أو محامية أو طبيبة أو تاجرة أو امرأة باحثة عن ملاذ الحياة
 أن ترضع طفلها ثلاثة أشهر أو أربعة في الحد الأدنى للرضاعة ؟ ، ص ٧٢ ، ٧٣ .
 هذه حسرة الرجل على اشتغال النساء عاملات أو مدرسات أو محاميات أو
 طبيبات ... وبعض هذه المشاغل كالطب والتدريس ضرورة اجتماعية ظاهرة ،
 فماذا يقول وكم تبلغ شكواه ومرارته إذا بالغ النساء في الاعتماد عن الفطرة فاشتغلن
 فائبات أو سياسيات ؟؟

والعرب يتداولون منذ فجر الإسلام حكمة الرسول عليه الصلاة والسلام: « لن يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة »^(١) ، وذلك جد معقول ، إذ أسندوا الأمور إلى ضعيف غير ذي اختصاص .

* * *

فإذا أنت جاوزت السياسة إلى الجهاد في الإسلام . رأيت المسألة تختلف بين يديك ، إذ تجد أنه ليس لأحد أن يحرم المرأة شرف الجهاد ، وأنها هي والرجل سواء في المطالبة به: كل بحسب استعداده واختصاصه ، فالرجال للقتال ، والمرأة لتمرير الجرحى ، والعناية بشؤون الجيش من نحو : إسقاء وإطعام ، وغسل وخياطة — . ثم هي مع ذلك كله تحمس المقاتلين وتبصرهم العواقب السيئة التي تنتظرهم وحرّمهم إذا هم تهاونوا في الدفاع .

وللمرأة العربية في هذا الميدان الموقف المحمود الذي لا يجارى ، كانت فيه مضرب الأمثال بشجاعتها وحسن بلائها وإخلاصها .

(١) مسند أبي داود الطيالسي ص ١١٨ الحديث ٨٧٨ (الجزء الثالث) وانظر مسند أحمد ٤٣/٥ ، ٤٧ . وفي صحيح البخاري أن أبا بكره كان يقول : « مانجوت من فتنة وقمة الجمل إلا لما تذكرت من قول رسول الله : لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » وسترى أي فتنة نجا منها أبو بكره !

وعلى هذا درجت من قبل أيضاً في جاهليتها ، فكان إليها في الحروب التمريض والعناية بالجرحى وسقي الماء وتحميس المحاربين ^(١) . ثم جاء الإسلام ففتحت عينها — لما أظلمها رأيته — «على رجال غير الرجال ، ومجتمع غير المجتمع ، ودين غير الدين ، فكأنها نشطت من عقل ، فشمرت عن ساعدها وأخذت من هذا الدين الجديد نصيبها الأوفى ، وكان شكرها لله عليه شكراً عملياً :

قاست في أوله ما قاسى الرجال من عذاب وهجرة واضطهاد وأذى ، ثم انتظمت في صفوف المقاتلين إعلاء لكلمة الحق ، وذوداً عن دين الله وعن رسوله ، فقاومت الرجل شرف الجهاد ، وآبت بثوابه وكرامته ، وليس بعد بذل الروح غاية في الشكران ^(٢) »

صحب رسول الله ﷺ النساء في مغازيه ، وأبلين معه البلاء الحسن ، فكن نعم المعينات للمحاربين . يداوين جراحهم ^(٣) ، ويحملن إليهم الماء في القرب يسقينهم ، ويتعهدن أطعمتهم ، وملابسهم وقربهم . وكن أحياناً يمارسن القتال :

(١) انظر كتابنا (الإسلام والمرأة) ص ٢٠ .

(٢) عن كتابنا السابق ص ٣٧ .

(٣) أقام الرسول خيمة في مسجده لرؤية إحدى عمرضات الجيش وحمل إلى

خيمتها سعد بن معاذ وهو مرتب (مشخن بالجراحة) .

في طبقات ابن سعد : « شهدت أم عمارة بنت كعب أحدًا مع زوجها غزية بن عمرو وابنيها ، وخرجت معهم بشن لها في أول النهار تريد أن تسقي الجرحي ، فقالت يومئذ وأبليت بلاء حسناً وجرححت اثني عشر جرحاً بين طعنة برمح أو ضربة بسيف . »

وتابعت المواقف الماثورة للمرأة من بعد الرسول ، وحفظ التاريخ لنا أسماء بطلات من مجاهدات الصحابة : كنسبينة وصفية . ولن ينسى أحد جهاد خولة بنت الأزور أخت ضرار وحسن بلائها في الروم ، ولا موقف الخنساء في يوم القادسية ، وكانت واحدة من كثيرات . وقد « قتلت أم حكيم يوم (مرج الصفر) سبعة بعمود الفسطاط الذي بات فيه خالد بن سعيد بن العاص معرساً بها ^(١) » .

وذكر الطبري عن أم كثير امرأة همام بن الحارث النخعي قالت : « شهدنا القادسية مع سعد (بن أبي وقاص) مع أزواجنا ، فلما أتانا أن قد فرغ من الناس شددنا علينا ثيابنا ، وأخذنا المهرابي ثم أتينا القتلى : فما كان من المسلمين سقيناه ورفعناه ، وما كان من المشركين أجهزنا عليه ، وتبعنا الصبيان نوليهم ذلك ونصرفهم فيه » ^(٢) .

(١) طبقات ابن سعد .. كانت وقعة مرج الصفر في المحرم سنة أربع عشرة في خلافة عمر بن الخطاب .

(٢) تاريخ الطبري ٨٢/٣ (مطبعة الاستقامة سنة ١٣٥٨ هـ) وإلى هذه الطبعة نشير فيما يستقبلك من نقول الطبري .

وإذ كانت هذه الواقعة من الخطر بحيث أنها هي الفاصلة بين العرب والفرس ، وأنها لها ما بعدها ، استعدت لها القبائل بكل ما تطيق حتى أن التاريخ ليذكر لقبيلتين من القبائل غراً خالداً إذ أخرجتا نساءهما معها ، فكان في قبيلة النخع - على ما يذكر الطبري - سبعمائة امرأة لا أزواج لهن ، وفي قبيلة بجيلة ألف امرأة ، تزوجن جميعاً في هذه الحرب ، وكانت النخع تسمى : أصهار المهاجرين .

لقد شرع الرسول الاستعانة بالنساء في الجهاد ، وأتابهن عليه من الغنائم ، ودرج خلفاؤه من بعده على سنته ؛ حتى إذا انقضى عهد الراشدين ، وخف علم الناشئين بالسنة ، شك بعضهم في هذه الاستعانة ، فكتب نجدة بن عامر الحورري إلى ابن عباس يسأله : « هل كان رسول الله ﷺ يغزو بالنساء ، وهل كان يضرب لهن سهماً ؟ » . فكتب إليه ابن عباس :

« كتبت إليّ تسألني : هل كان رسول الله يغزو بالنساء ؟ وقد كان يغزو بهن فيداوين الجرحى ويحذّين (يُعْطَيْنَ) من الفريضة^(١) . كل ما تقدم من استحباب خروج النساء ليشاركن الرجال شرف الجهاد ، هو في حال الفتح والهجوم حين يكون الجهاد فرض كفاية

على الرجال أنفسهم ، فأما إذا انعكس الأمر وهاجم العدو بلاد المسلمين أو احتلها ، فينشد يصبح الجهاد فرض عين على كل مسلم ذكر أكان أم أثنى ، لا يستثنى من هذا الفرض صبي ولا امرأة ولا رجل ، نص الفقهاء في هذه الحال على أنه يجب على المرأة أن تخرج إلى القتال بلا إذن زوجها^(١) . وبذلك يصبح التكليف والوجوب بدرجة واحدة على الرجال والنساء والصبيان والأحرار والعبيد لا يستأذن أحد أحداً في تأدية هذا الواجب^(٢) .



من شأن السياسة المزالق الخفية الخطرة ، فهي على المرأة حرام صيانة للمجتمع من التخبط وسوء المنقلب ، أما الجهاد فطريق لاجبة مضمونة الخير . فللمرأة أن تأخذ من هذا الشرف نصيبها الأوفى .

(١) انظر في ذلك : باب السير أو الجهاد في كتب الفقه مثلاً : شرح الزيلعي على متن الكنز ٣/٢٤١ والحكم مشهور لأن الإسلام لا يقر احتلالاً لأجنبي بحال من الأحوال ولا يرضى لأهله حياة ذليلة .

عبرة الحوادث^(١)

الآن ، وقد بلغت بك نهاية الحديث عن السيدة عائشة ومغامراتها السياسية وآثارها القريبة والبعيدة في حياة المسلمين ، أودعك موصياً أن تجعل بالك أبدأً — كلما قرأت التاريخ — إلى عبره وتجاربه ، فتأخذ من كل شيء أحسنه ، وتربأ بنفسك وبأمتك أن تغامر في تجربة ثبت ضررها وفسادها ، وخاصة إذا كان الثمن الذي قدمناه فيها دماء عشرات الألوف . وأنا أريد أن أختم كلامي بالنص على عبرتين اثنتين من هذه العبر الكثيرة التي تعرض لقارئ هذا الكتاب : تنقذانا مما نحن فيه اليوم من تخطيط ، وتنيران لنا طريقاً طال تعسفنا في المتاهات دون أن نهتدي إليه :

أما الأولى : فهي أن المرأة لم تخلق قط لتدس أنفها في المنازعات السياسية . إن لها أن تنصح وتبصر القريين منها بعواقب الأمور ، وليس لها أن تشارك في القلاقل والاضطرابات والفتن . إن يدها مفاتيح خطيرة في التأثير في نفوس الجماهير وفي استغلال حميتهم ونخوتهم ومشاعرهم . وهذا السلاح غير حميد في العواقب ولا يصح استعماله

بحال ، وقد أبنت لك أنه لو لا موقف السيدة عائشة في أمر عثمان ثم المطالبة بدمه من بعد لتغير مجرى الحوادث في تاريخنا التغير كله ، ولسارت سيراً مأموناً مطرد الرقي مباركا ، فيه الخير كل الخير للأقطار الإسلامية .

وكان الله الذي جعل النساء لتنشئة الرجال وتربية الأجيال وإدارة البيوت ، أراد أن يعظ المسلمين عظة عملية لا تنسى ، كلقتهم كل تلك الدماء المهرقة ، وجمعهم بالآلوف من الصحابة الأجلاء المهاجرين والأنصار ومن الفحول المذاويد من أبطال الفتح وأعظم الفقهاء وأساطين القراء ورؤوس الناس ... ليعلموا : أن لو كان أمر من أمور الرجال الخاصة بهم يقوم باصراً ، لقام بهذه السيدة الحبيبة التي أوتيت من المواهب والذكاء والعلم والبلاغة والصلاح ... ما لم يؤتته رجال كثيرون مجتمعين ، والتي جمع الله فيها من المآثر العظام ما تفرق في العدد العديد من الفحول .

لقد خلدت حرب الجمل مناراً في تاريخ المسلمين : كلما نزع بهم نزع من تقليد أعمى لغيرهم من الأمم ؛ أو مس من رجعية ذميمة ، فهبطوا بالمرأة من الصيانة إلى الابتذال ، أو همّوا أن يخرجوا بها عما خلق لها وخلق له ... قالوا لأنفسهم : أخفقت هذه التجربة في صدر

تاريخنا ؛ فما بنا من حاجة إلى أن نعيدها عبثاً ، أو أن تهرق في سبيلها
ثانية دماء جديدة ونخرب بيوتاً عامرة .. ومن لنا مع هذا بمثل عائشة .
إن هناك مجالاً واسعاً لنشاط المرأة حين تجد وقتاً فاضلاً عن
شؤون الترية وإدارة المنزل ، تستطيع به أن تملأ الأجواء خيراً ورحمة
وإحساناً . هذه وجوه الخير مفتحة الأبواب في وسع المرأة أن تلجها
فتمارس أموراً عظيماً وتبذل مجهوداً مشكوراً يعود على أمتها بالايقل
عما يأتيه الرجال المحسنون ثمرة وغناء وطيب أثر .

أمامها من ميادين الخير : التمريض وإسعاف الفقيرات من بنات
جنسها بالعلاج والدواء والطعام والكساء . وفي مجتمعنا من المحتاجات
ما يشغل عشرات الجمعيات الخيرية من النساء ولا يفي بحاجتهن عشرات
المستشفيات .

وأمامها أيضاً كفاح الجهل في بنات جنسها ، فلتنشئ لهن المعاهد
ذوات المناهج الصالحة لتنشئة الأمهات على ألا تستعير لها برامج
الذكور (ببعض التعديل) فقد ثبت مع الزمن أنا حتى الآن لم تقم
التعليم الصالح للبنات (١) .

(١) ينبغي أن تكون أكثر مواد هذا التعليم بحثاً واسعة تجريبية في كل ما
تحتاج إليه الأم في الصحة والدين وشؤون المنزل وتربية البنين وحسن العشرة ... —

وهناك أمام المرأة العناية بتربية اليتيمات وإنشاء (الميتم) وتعهدها أمهاتهن بالرعاية والتوجيه ثم إشاعة الثقافة الصحية بين النساء عامة .
ويجب أن ينشأ فيهن المتخصصات في جميع الفروع التي يحتاج إليها النساء والأطفال وأن يكون منهن العدد الوافي بالحاجة بحيث يسددن عوز النساء في علاج أمراض العين والأسنان والأمراض الداخلية والجلدية وفي حاجات التوليد .

فان كان ولا بد من زيادة فالى المساهمة في كفاح مايتفشى في المجتمع من امتهان المرأة وإشقاقها عن طريق البغاء والقمار والخمر وغيرها من المفاسد التي ضاقت بشرورها المفكرون في الغرب والشرق .

لدى المرأة إذاً كثير من أعمال الإحسان تنتظر من يقوم بها ، وفي ذلك الخدمة المخلصة للأمة وإعمار البيوت وإفاضة الخير والسعادة في المجتمع ...

— لاخليطاً غير منسجم من نظريات الرياضيات ومعادلات الكيمياء وقوانين الطبيعة .
ولتجعل التاريخ الذي يدرسه مملوءاً بسير الذين ضربوا المثل العليا للبشر في سمو النفس وابتغاء الخير وخدمة الناس ، وفي الفضائل الحية بمن أشاعوا الرحمة والصلاح والعدل والخير ، وكانوا للانسانية حماة الابطال المخلصين من رجالنا ونسائنا على السواء . ولتجنب شجنه لمن بأخبار القلاقل والاضطرابات والفتن والحروب ومثل الفساد والطفان .

ونحمد الله على أن في فضليات نساتنا من تحاول سد هذه الثمة ،
 إلا أن نسبتهم قليلة جداً بالقياس إلى اللائي تنكين الجادة متخبطات
 على غير بصيرة ، فهجرت بيوتهن واكلات أمورهن إلى الخوادم ،
 وطفقن يمارسن ما لا يعود عليهن وعلى أسرهن وأمتن إلا بالضرر
 الخالص والإفساد الكبير : من إقامة حفلات ساهرة مخجلة ، وغشيان
 مجتمعات وأندية ، واقتحام أسفار ، وعقد مؤتمرات لا يبلغن فيها أمراً
 نافعاً ، بل كثيراً ما يرجعن وقد سبقتهن أشأم الحوادث وأسوأ الأخبار ..
 مما يدع السامع ينشد قول جرير يخاطب الفرزدق :

و كنت إذا حلت بدار قوم رحلت بخزية وتركت عاراً
 يقلدن بذلك نساء ضج عقلاء أمهن من أحوالهن ^(١) ، وسقط

(١) وددت لو تفرغ طائفة من علماء النفس إلى دراسة نفسية عميقة للنسوة
 اللاتي يطالبن بالحقوق السياسية في أوروبا وأمريكا واللاتي استغرقن (نشاطهن)
 الاجتماعي كل وقتن، فلعل في أعماق نفوسهن هوى سحيقة ومرارات أليمة وعلا
 وشذوذاً ... وشموراً صارخاً بنقص مائل لا عينين كيفما توجهن ، فأترن تناسيه
 والحرب منه بذلك (النشاط الاجتماعي) . والطريف أن هؤلاء لم يكن عددن
 إلا في هذه السنين الثلاثين الاواخر ، حين فقدت أوروبا الشمور بدفء الأسرة
 ونعيمها وروحها ، وملت البيوت من جوها الجميل الجذاب جو التآلف والاجتماع
 والتحاب والتعاطف ، وأصبحت مائدة البيت قلما يجتمع عليها اثنان بعد أن تشرد
 أفراد الأسرة وتبثمروا في المطاعم والسهرات . فلو كان بناء الأسرة متماسكا —

مقامهن فيها من كثرة هذا التبذل والعيب ، وعدن على بنات جنسهن من البريئات بأبلغ الضرر لما لوثن من سمعة المرأة عامة . ليتنا إذ جننا بالتقليد اخترنا من نقلد ، ففي كل أمة من فضليات النساء النافعات ما يحسن الاقتداء به ، ولكننا نتقي أخط المبتذلات ثم نسبقهن في الابتذال أشواطاً يخجلن هن أنفسهن من السعي إليها .

وأبعد من هذا ، أننا إذا أمعنا في البيت وما يحتاج إليه تديره على خير نسق من علم واسع غزير في الصحة والأخلاق والتربية وعلم النفس ، وسياسة الزوج والأطفال ، وسياسة المورد والمصرف ،

— متيناً حبيباً كهمده أول ، ما كان المطالبات بحقوق الانتخاب والنيابة والوزارة والتمثيل السياسي وما إلى ذلك . وإذا أساغ التصور السليم مثل هذا الشذوذ في رومية السوفيتية ، حيث كان يراد إقامة مجتمع لآباء الأسرة فيه ، فإنه لا يتخيل بحال امرأة عضوة عاملة في أسرة ثم تكون مندفعة في تيارات السياسة وما إليها في وقت معاً .

ووددت أيضاً لو شرع الفنيون من رجال الإحصاء بدراسة تعرفنا نسبة ربات الأسر اللائي أنعم الله عليهن بالزوج والولد بين الطالبات بحق الانتخاب مثلاً ، ثم احصوا نسبة الجيلات منهن ، ثم .. ثم .. إلي لا أخفي أن تكون الكثرة السكاكرة منهن ممن حرمن الله الجمال والزوج والولد ، فنقم على المجتمع نظامه وعلى الأخلاق قوانينها ، وعلى السعادة وجودها على الأرض ، وآلئ على أنفسهن الا يضعن الحرب حتى يعم العدل وجه الأرض ، وما العدل عندهن إلا هدم الأسر وانظمة الزواج ، وسلطان الضمير ، ومحو السعادة جملة .

ورعاية ذلك كله .. وجدنا أن علم ذلك وإتقانه وحسن إمضائه لا يكاد يبقی للمرأة القديرة ذات الموهب الجملة من فراغ أو جهد ، فكيف المتوسطات بله الضعيفات . إن ما يلزم لتصبح الأنثى امرأة (مثقفة) ليتضاءل أمامه - في اعتقادي - كل ثقافة ثانية مهما كانت رفيعة مفيدة . وعلى المرأة الجادة بعد ذلك واجبات عديدة تستطيع أن تشارك في شرف الخدمة فيها ، على شرط واحد : هو أن تنهي كل ما عليها من واجب نحو بيتها وأسرتها أولاً ، وإنما يكون التطوع والصدقة والإحسان فيما فضل عنك من مال أو وقت أو جهد .



هذا ، ولست أقول إن المرأة لا تنفع منها في باب السياسة ، أستغفر الله ، إن منها النفع كل النفع من طريق واحد فقط : هو أن تتحلى بكل فضيلة رسمها لها دينها ثم تنشئ عليها أولادها ، فإنا في امرأة فرطت بفضائل دينها من خير قط . والناس على حق حين يهتمون كل أدب واحترام إذا رأوا امرأة جامحة على الآداب النسوية التي شرعها الله . والدين للمرأة هو كل شيء في نظر زوجها وولدها وأسرته والناس أجمعين ، فإذا جاهرته بشيء من الخروج عليه فقدت كل

احترام في النفوس، وانتقلت نظرة الناس لها دفعة واحدة من التقديس إلى الزايلة .

إن من لم تكن أمينة على دينها لن ينتظر منها إلا الشر والخيانة لأسرتها ووطنها ، مثلها في ذلك مثل الرجال رق دينهم : فلما مارسوا الشؤون العامة مالئين الدنيا صخباً بدعوى إخلاصهم ووطنيتهم ، كان بلاء الأوطان منهم وحدهم إذ كانوا لا يخافون الله ولا يرعون لدين عهداً ولا لضمير حرمة ، فانطلقوا يشحنون الأرض خسفاً وكسفاً ونهباً وسلباً واحتكاراً وغلاءً وإهداراً للكرامات والقيم وتضييعاً للأمانات والحقوق . وبذلك ضربوا أسوأ الأمثال وأظهروا وطنهم بشر المظاهر ... ومن مات وازعه الديني ونسي يوم الحساب فلن يردده عن طغيانه رادع من الناس ولا رقيب .

وأنا على يقين من أن أمهاتهم مسؤولات - إلى حد بعيد - عن هذا الخزي الذي ارتطموا فيه ، إذ أهملن فيهم تربية الوازع وإحياء الضمير وإشعارهم خوف الله والحساب . لقد حرمنهم النشأة الدينية الفاضلة فلم يعرفوا لذتها ولم يتعهدن ذمتهم وأخلاقهم ففقدوا في أنفسهم الكرامة الإنسانية ، فلما تغلبوا وسيطروا كانوا فوق الوحوش ضراوة وشراسة وقسوة قلب ، فعم البلاء البلاد والعباد ...

إلى هذا الحد تبلغ جريمة المرأة الناشئة على غير دين ، وتعظم
المصيبة ، وتستفحل آثار شرورها في مستقبل الأمة وسلامة المجتمع .
فلها إذن آثار بعيدة في السياسة ، وهي تسدي لوطنها أعظم الفضل
أو تبلغ منه أعظم النكايه ، لا بنفسها مباشرة فقط ، ولكن بنفسها وبما
تنشئ عليه أبنائها سياسيين الغد من فضائل أو رذائل ، وبما تنال ضمير
الناس ، ووازعه الديني من عناية أو إهمال .



ذلك ، وقد أعان على تردّي المرأة في الخروج على أنوثتها وفطرتها ،
فريق من أشباه الكتاب حملوا أقلاماً ولم يحملوا إخلاصاً ولا أمانة ولا
نصحاً . دفمهم الرياء المغشوش على أن يفرقوا في مجاملة المشتطة الطائشة
ابتغاء العبث بها وبكرامتها ، فحملوها فوق ما تستطيع من السخط على
الطبيعة التي فيها لكل كائن عمل خاص . وكان حق المرأة على هؤلاء
أن يأخذوا بيدها إلى ما يسعدها من علم وخلق ، وإلى ما يعزها في المجتمع
سيدة بيت وصرية أجيال . وكان من حقها أيضاً على من يزعم نصرتها
أن يمسكها عن أن يهوي بها الطيش في مكان سحيق فتفقد مالها من
حرمة هي ملاك أسرها كله في المجتمع .

ليتنا في غمراتنا اليوم نسترشد بتجارب الماضي ونسير غير متخبطين :

نبصر مواطني أقدامنا وتقي المزالق، ونجند كلاً في ميدانه الذي يصلح له . لقد تداعت علينا الأمم ، وطمع فينا حتى (الصهاينة) من شذاذ الآفاق " ، وغزينا في أخلاقنا وبلادنا وأموالنا ... وليس في جهودنا فضل نفقه في رد العابثين عن عبثهم ؛ فليتنق الله حملة الأقلام وليصونوا الشاردات عن القطيع ، وليرجعوا بهن عن طريق وضعن أقدامهن في أوله وما آخره إلا مستقبل أسود حالك للآثي أولاً ، ثم خراب البيوت وهدم الأسر وارتكاس المجتمع وموت كل كرامة امتاز بها الإنسان من دون الحيوانات الدنيا .

وما الانهيار السريع الذي قضى على بعض دول الغرب العظمى في مثل لمح البصر بسبب فساد المرأة يبعيد فينسى . ولنا فيه درس وموعظة وبلاغ .

الفهرس

٣ مقدمة الكتاب

الباب الأول

١١

المرأة العربية في نشأة الإسلام

١٢ الفصل الأول : المرأة الجاهلية

المرأة العربية والرومانية والفارسية - صفات المرأة الجاهلية جملة -

٢١ الفصل الثاني : مظالم الجاهلية للمرأة

تشاؤمهم بالأنثى - الواد - السبي - وراثتهم النساء مع المتاع -
حرمانهم إياها الإرث والمهر - المضل - الحكم القالب

٣٠ الفصل الثالث : صنيع الإسلام للمرأة

إبطال المظالم جملة - المروف والاحسان أساس كل علاقة بين الزوجين
نصيب المرأة في نشر الاسلام - بيعة النساء - استجابة الله شكوى امرأة

٤١ الفصل الرابع : شخصيتها الحقوقية

إجمال حقوقها بنتاً وزوجاً وأماً - ولايتها على أموالها وعقودها المدنية -
نكسة رجعية حديثة - ولايتها للقضاء

٤٧ الفصل الخامس : جهاد الرسول في سبيل المرأة

تلطف الرسول في القضاء على النظرة الجاهلية - معاملته أزواجه
واحتجاج النساء بها - إجارته لمن أجارته امرأة - شفاعته الرسول
عند جارية - مثل من مكانة المرأة الطيبة - اقوال كريمة في الوصية
بالمرأة - رقة الرسول للآث ورقيقه بهن - من جوامع كلمه في ذلك
- آخر وصايا الرسول - أثر تمايلهم في تخريج النساء الجليلات

الباب الثاني

٦١ أمهات المؤمنين

٦٣ الفصل الأول : في أزواجه وسبب تعددهن

خديجة - خدمتها للإسلام في نشأته - وفاء الرسول لها بعد موتها -
- غيرة عائشة من كثرة ثنائه عليها - إكرامه صواحبها بعد موتها -
سودة - عائشة - حفصة - أم سلمة - زينب بنت خزيمة - جويرية -
- أم حبيبة - زينب بنت جحش - صفية - ميمونة - مارية -
سر هذا التعدد وفائدته للدعوة

٧٤ الفصل الثاني : في التشريع الخاص بأمهات المؤمنين

١ - صيانة مقامهن وحرمة نكاحهن بعده - زول آية الاذن والحجاب
٢ - حجابهن خارج البيوت ٣ - حادث التخير واختصاصهن دون
سائر الصحابة بمضاعفة الأجر ٤ - تحريم طلاقهن والزيادة عليهن
٥ - تقرير امومتهم لعامة المسلمين - امهات في التحريم دون المحرمة
- عظم حرمتهم في نفوس المسلمين على اختلاف مذاهبهم - عقيدة
الشيمة خاصة في امهات المؤمنين

٩٠ الفصل الثالث : في إجمال سيرة الرسول معهن

٩٤ الفصل الرابع : في سيرتهن بعده وعناية الخلفاء بهن

عبادتهن - هن والسياسة - في عهد ابي بكر - في عهد عمر -
تفضيلهن في العطاء - حجبهن - في عهد عثمان

١٠١ الفصل الخامس : في منزلتهن الاجتماعية ومشاركتهن في الأمور العامة

نشرهن الشريعة - كن مرجع الناس ايام عثمان - وكن مرجع
الخليفة نفسه

مذهب ابن حزم في تفضيلهن على الناس عامة حاشا الانبياء

١٠٨ خاتمة : في بيوتهن وتاريخ هدمها وبكاء الناس عليها

١١٠ ملحق

المرأة والسياسة - المرأة والجهاد - خاتمة كتاب (عائشة والسياسة)